قضية
الألم والإنسان

كلايف ستابلز لويس

كلايف ستابلز لويس

قضية الألم والإنسان

ترجمة نادين عطار

لوجوس

الكـــتاب : **قضية الألم والإنسان**
الكـــاتب : **كلايف ستابلز لويس**
المترجم : **نادين عطار**

الجمع والاخراج الفنى والطباعة

لوجوس سنتر

تليفون / فاكس ٢٩٠٦١٦١
ص . ب . ٢٤٥٥ الحرية
هليوبوليس - القاهرة
E-mail : logoscenter@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠١/١٥٣٠٥

الترقيم الدولي :9- 77- 5607 - 977

المحتويات

المقدمة

عندما اقترح عليَّ السيد أشلي سمبسون Mr. Ashley Sampson كتابة هذا الكتاب، طلبت منه أن يسمح لي بعدم ذكر إسمي، حيث إنه إن كان يجب عليَّ أن أقول حقاً ما أظن بالألم فسوف أذكر عبارات وأحكام متشبثة وثابتة بصورة واضحة، تصبح غير مقبولة إن عُرف الشخص الذي صنعها.

ولقد رفضت هذه الفكرة (عدم الإفصاح عن اسم الكاتب). حيث إنها لم تحدث من قبل في هذه السلسلة، ولكن السيد أشلي أشار إلى إمكانية أن أكتب مقدمة أوضح فيها أنني لم أعتمد على مبادئي الشخصية.

يا له من عمل مسر ومبهج ذلك الذي أنا بصدده الآن.

دعوني أعترف في الحال من خلال كلمات والتر هيلتون Walter Hilton وأقول إنني عبر كل الكتاب "كنت أشعر بمدى بعدي الشديد عن الإحساس الصادق بما أتكلم به، فلا يسعني إلا أن أبكي في طلب الرحمة وأن أجد في طلبها بقدر ما أستطيع".

من أجل ذلك السبب، هناك نقد واحد لا يمكن أن يوجه إليَّ. فلا أحد يستطيع أن يقول: من لم يشعر البتة بالجراح، يستطيع أن يمزح بشأن الندبات، حيث إنني لم أشهد لحظة واحدة يمكن فيها أن تكون حالتي الذهنية أقل من أن توصف بأنها غير محتملة إن تصورناها بالمقارنة مع أكثر الألم شدة.

وإن كان هناك إنسان ما في مأمن من أن يستخف بهذا العدو فإنني هذا الرجل.

ولابد لي أن أضيف أيضاً أن هدف هذا الكتاب الوحيد هو حل المشكلة العقلية والفهمية التي تنشأ كنتيجة للألم، لأني لست أحمق متى أعتبر نفسي أهل بأن أقوم بتعليم ثبات العزم والصبر. تلك مهمة أكبر بكثير.

كما لا أظن أن لديّ شيء أعطيه للقارئ سوى اعتقادي واقتناعي إن الألم حينما يكون محتملاً، فإن الشجاعة تفيد أكثر من العلم، والتعاطف البشري ينفع أكثر من الشجاعة، وأقل صبغة من حب الله تنفع اكثر من أي شيء.

إن أي لاهوتي حقيقي سوف يقرأ هذه الصفحات سوف يرى بكل سـهولة إنها نتاج عمل علماني هلوي.

وفيما عدا البابين الأخيرين، الذين يعتبرا تصور في خيالي، فإنني في بقية الكتاب قمت بإعادة صياغة عقيدة قديمة متداولة. وإن كانت هناك أجزاء فـي هذا الكتاب جديدة من نوعها أو غير أرثونكسية فإن ذلك ضد إرادتي ومصدره جهلي.

إنني بالطبع أكتب كعلماني تابع الكنيسة الإنجليكانيـة، ولكنـي بـالطبع حاولت ألا اعتمد على أي شيء لا يعترف به كل المعمدين المسيحيين.

ولأن هذا العمل لا يعتبر ذو هدف إطلاعي فقد اهتممت قليلاً بأن أشـير لمصدر الأفكار والاقتباسات التي استخدمتها في حالة كونها صعبة التتبع.

ولكن أي لاهوتي سوف يدرك بسهولة كافية ما قرأته وضآلته.

كلايف ستابلز لويس

الكاتب:

كلايف ستابلز لويس Lewis, C(live) S(taples)

ولد عام ١٨٩٨ في بلفاست في إيرلاندا. تعلم تعليم خـــاص ثـــم اكمـــل دراسته في جامعة أكسفورد.

أصبح زميل وأستاذ فيها من ١٩٢٥ حتى عام ١٩٥٤. ثم فـــي جامعـــة كمبريدج حيث تخصص في الأدب الإنجليزي الخـــاص بـــالقرون الوســـطى وعصر النهضة.

كانت له شعبية كبيرة كمحاضر كما كان له تأثير على تلاميذه.

لقد كان لويس لسنوات عديدة ملحداً، ولكنه وصف توبته في كتابه "الفـرح الذي فاجأني".

لقد ساعدته تجربته في فهم ليس فقط عدم القدرة على قبول الدين بل عدم الرغبة الفعالة في قبوله.

لقد كان يتمتع بذهن فائق الذكاء ومنطقي كما أن أسلوبه واضـــح وحـــي، مما يجعله بلا مماثل ككاتب مسيحي.

من أشهر كتاباته: "المسيحية الحقيقية"، "الفرح الذي فاجأني" "معجزات"...

كما كتب العديد من الكتب للأطفال، وبعض قصص الخيال العلمي وبعض الكتابات الأدبية النقدية.

إن كتاباته معروفة للملايين في كل أنحاء العالم وقد ترجم الكثير منها.

توفى لويس عام ١٩٦٣ في منزله في أكسفورد.

الفصل الأول

تمهيد

أتعجب لجرأة بعض الأشخاص عند تحدثهم عن الله حيث إنهم يستدلون على وجوده من أعماله في الطبيعة وذلك في بحث موجه لغير المؤمنين. إن ذلك يعطي لقرائهم انطباع أن الأدلة التي تبرهن على ديننا ضعيفة جداً.

من الملاحظ أنه لا يوجد أحد من كُتاب الكتاب المقدس استخدم الطبيعة لإثبات وجود الله.

باسكال (من كتابه: خواطر- الباب الرابع: ٢٤٢، ٢٤٣)

منذ سنين ليست بكثيرة، عندما كنت ملحداً، لو كان أحداً قد سألني لماذا لا تؤمن بالله؟ كانت إجابتي سوف تكون الآتي:

انظر للكون الذي نعيش فيه. أغلبه مكون من فضاء فارغ، مظلم إلى التمام، برودته لا يمكن تصورها. والأجسام التي تتحرك في هذا الفضاء قليلة جداً وصغيرة جداً بالنسبة له. حتى إذا تصورنا أن كل هذه الجسام مكتظة بكائنات سعيدة تماماً، يبقى صعب للتصديق أن الحياة والسعادة ليست أكثر من أن تكون في مرتبة ثانوية بالنسبة إلى القوة التي صنعت هذا الكون..

كما هو معروف كذلك أن العلماء يعتقدون أن عدد ضئيل جداً من الشموس الموجودة في الفضاء، إن لم يكن فقط شمس مجموعتنا، هي التي لديها كواكب. كما أن في مجموعتنا الشمسية لا يوجد احتمال أن تسمح الكواكب الأخرى عدا الأرض بالحياة.

الأرض نفسها بقيت بدون حياة لملايين السنين ويمكنها أن تظل ملايين أخرى باقية بعد أن تتركها الحياة.

وما هو الحال على الأرض وهي مستمرة في البقاء بعد أن تتركها الحياة؟

إن الحياة مُرتبة بحيث لا يمكن للأنواع البقاء إلا بافتراس أحدها الآخر. تسبب هذه العملية لدى الأنواع البدائية السفلي الموت فقط ولكن لدى الأنواع العليا تظهر صفة أخرى تسمى الإدراك: الذي يجعل هذه العملية مصحوبة بالألم.

تسبب المخلوقات الألم بالميلاد، وتعيش تحكم بالألم على الآخرين وأغلبها يموت في الألم.

في حالة الإنسان، أكثر المخلوقات تعقيداً، تظهر صفة أخرى نسميها العقل، وبه يستطيع التنبؤ بألمه وبالتالي يعقب ذلك معاناة نفسية حادة، كذلك به يستطيع التنبؤ بالموت في حين أنه يشتهي بشدة الدوام.

العقل أيضاً يسمح للإنسان بتدبير مئات الأساليب العبقرية لإحداث الألم، الألم الذي يفوق بكثير ما كان من الممكن للإنسان أن يسببه لأخيه الإنسان أو للمخلوقات الغير عقلية في حالة عدم وجود العقل. ولقد استغل هذه القدرة إلى التمام.

إن تاريخ الإنسان ما هو إلا سجل ضخم ملئ بالجرائم، الحروب، الأمراض، والفزع يتداخل فيه كم ضئيل جداً من السعادة.

وأثناء تلك السعادة يئن الإنسان خشية فقدها، وحين تفقد تمنحه الذكريات بؤس أليم.

من وقت لآخر تتطور وتتحسن حالة الإنسان قليلاً ويظهر ما نسميه بالحضارة. ولكن كل الحضارات تمضي، وحتى أثناء وجودها فهي تسبب معاناة خاصة تميزها وربما تفوق هذه المعاناة القدر الذي أنقصته هذه الحضارة من الآلامات الطبيعية للإنسان.

لا أحد يجادل أن حضارتنا نحن فعلت ذلك وربما تمضي كما مضت كل الحضارات التي سبقتها. وإن فرضنا أنها لن تمضي فماذا بعد ذلك؟ فإن الجنس مقضي عليه. كل جنس يأتي إلى الوجود في أي مكان في الكون مقضي عليه، لأن الكون كما يقولون لنا، يحتضر وفي وقت ما سوف يصبح كتلة واحدة لامتناهية مكونة من عناصر متجانسة عند درجة حرارة منخفضة.

كل ما نرويه سوف يؤول إلى اللاشيء. الحياة في النهاية لن تكون إلا مجرد مرحلة أو نتوء لا معنى له على الوجه الأبله الذي تحمله هذه المادة اللامتناهية.

إن طلبت مني أن أؤمن أن ذلك من صنع روح جواد وكلي القدرة فإن جوابي سوف يكون أن كل الأدلة تشير إلى الاتجاه العكسي وتعطينا ثلاثة احتمالات:

- ليس هناك وجود لأي روح وراء صنع هذا الكون.
- هناك روح لا يبالى بالخير أو الشر.
- هناك روح شرير وراء صنع هذا الكون.

هناك سؤال واحد لم أكن أتصور أنني سوف أطرحه في يوم من الأيام. لم ألاحظ أن حجة هؤلاء المتشائمين القوية والسلسة سوف تشكل لنا مشكلة. في يوم من الأيام: إن كان الكون سيئ لهذه الغاية أو حتى أقل سوءاً بما يعادل النصف فكيف توصل إذا الإنسان لأن ينسبه لخالق صالح وحكيم؟ لربما البشر أغبياء، ولكن ليس إلى هذا الحد.

والذي لا يمكن تصديقه هو أن الإنسان يستدل على اللون الأبيض من اللون السود، ويستدل على الجذر الصالح من الزهرة الشريرة ويستدل على صانع لا متناهى الحكمة من أعمال لا معنى لها.

إن مظهر الكون كما توضحه الخبرات لم يصلح أبداً لكي يصير قاعدة لأي دين، ولكن رغماً عنه، أكتسب الدين قوامه من مصدر أخر.

سوف يكون من الخطأ الإجابة بأن أجدادنا كانوا جهال ولذلك سلموا وقبلوا أشياء وهمية عن الطبيعة بددها التقدم العلمي.

لقد ظل كابوس حجم وفراغ الكون معروفاً لقرون عديدة ومع ذلك كان فيها جميع البشر مؤمنون.

سوف تقرأ في بعض الكتب أنه أثناء القرون الوسطى كان البشر يعتقدون أن الأرض مسطحة وأن النجوم قريبة ولكن ذلك كذبة. بطليموس أخبرهم أن الأرض عبارة عن نقطة رياضية ليس لها حجم بالمقارنة بالمسافة بين النجوم الثابتة التي تقدر، بحسب نص من القرون الوسطى، بـ ١١٧ مليون ميل.

كما أن البشر الذين عاشوا قبل ذلك، حتى منذ بدايات الحياة لابد أنه قد ساورهم نفس الإحساس بوحشة ذلك الكون الفسيح من مصدر أكثر وضوحاً.

بالنسبة لإنسان ما قبل التاريخ كانت الغابة المجاورة لامتناهية، والحيرة التامة والانزعاج الذي يساورنا عندما نفكر في الأشعة الكونية والشموس التي تفقد حرارتها لابد أنهما كانا يزمجران ويعويان ليلاً عند أبوابه.

مما لاشك فيه إنه خلال كل الأزمنة نرى بوضوح الألم وضياع الحياة الإنسانية بنفس القدر.

تبدأ ديانتنا بين اليهود، ذلك الشعب المعتصر بين الإمبراطوريات العسكرية العظيمة، نراه باستمرار مهزوم ومأسور. لقد اعتاد مثل شعب بولاندا وأرمينيا على قصة الهزيمة الدرامية. ليس هناك معنى لإدراج الألم ضمن الاكتشافات العلمية!

دع ذلك الكتاب، وفكر بعمق لمدة ٥ دقائق أن كل الديانات العظمى تم التبشير بها وممارستها في عالم خالي من الكلوروفورم (مادة مخدرة).

في كل مرة، وقتها، لم يكن الاستدلال عن إله صالح وحكيم من تسلسل الأحداث في العالم شيء يقبله العقل وبالفعل لم يحدث ذلك أبداً[1] الديانة لها أصل مختلف.

فيما يلي يجب أن يفهم القارئ إنني مبدئياً لا أجادل حقيقة المسيحية ولكني أصف أصلها. فمن وجهة نظري من اللازم عمل ذلك إن كنا بصدد إعطاء مشكلة الألم وضعها الصحيح.

نجد في كل للديانات المتطورة ثلاثة خيوط أو عناصر،

وفي المسيحية هناك عنصر رابع. أولها ما يسميه بروفيسور أوتو Otto (فيلسوف ولاهوتي ألماني "١٨٦٩- ١٩٣٧")

لختبار "الوجود للروحي الخارق"

---

[1] أي أن ذلك لم يحدث أبداً في بدايات أي ديانة، بعد قبول الإيمان بالله سوف تظهر كثيراً من النظريات اللاهوتية لشرح أو ضحد آلامات الحياة.

سوف أشرح وأقدم هذا المصطلح للأشخاص الذين لم يجابهوه من قبل كما يلي.

تصور لو أنك أُخبرت أن هناك نمر في الغرفة المجاورة، سوف تشعر غالباً بالخطر وبالتالي الخوف. ولكن إن أُخبرت أن هناك روح في الغرفة المجاورة، وصدقت ذلك، سوف تشعر فعلاً بما نسميه في أغلب الأحيان بالخوف ولكنه من نوع آخر. لن يكون أساس الخوف هو العلم بالخطر لأنه في الأصل لا يخاف أحد من ما يمكن للروح أن يفعله به ولكنه يخاف لمجرد كونه روح. إنه شيء "غير مألوف ودخيل" أكثر من كونه خطير، والنوع الخاص من الخوف الذي يحفزه هو ما يمكن أن نسميه "الرهبة".

من خلال الغير مألوف نصل لأهداب الوجود الروحي الخارق. والآن تصور أنك أخبرت ببساطة أن هناك روح قدير في الحجرة وصدقت ذلك. سوف تكون مشاعرك أقل شبهاً بمشاعر الخوف العادية للخطر، ولكن انزعاجك سوف يكون عميق. سوف يداهمك شعور بالتساؤل والتعجب ونوع من التضاءل، إحساس بعدم الأهلية لمباراة ذلك الزائر ورغبة في الانحناء أمامه.

يعبر شكسبير عن هذه المشاعر بهذه الكلمات "تحته قد توبخت عبقريتي" من الممكن إذاً وصف ذلك الشعور بالهيبه، أما الذي يحرك هذا الشعور فيوصف بالوجود الروحي الخارق.

إذاً إنه من المؤكد أن الإنسان الذي عاش في الأزمنة الأولية كان قد بدأ يؤمن بأن الكون مسكون بالأرواح. بمنتهى البساطة يدعى بروفيسور أوتو Otto أنه منذ البداية فإن هذه الأرواح كان ينظر لها بالرهبة الروحية. ولكن ذلك من المستحيل إثباته لإنه للتعبير شفوياً عن الرهبة من الوجود الروحي وعن الخوف الطبيعي من الخطر يمكن استخدام نفس الألفاظ، حيث يمكننا القول: أننا نخاف من روح وفي الوقت نفسه نقول نخاف من زيادة الأسعار.

وهكذا من المحتمل نظرياً أن يكون الإنسان في يوم من الأيام قد أعتبر هذه الأرواح ببساطة في خطورة النمور وشعروا تجاهها بنفس المشاعر التي

كانوا يضمرونها لتلك الحيوانات على أية حال، إنه من المؤكد أن تجربة الوجود الروحي الخارق موجودة في وقتنا هذا ويمكننا تتبعها في أزمنة بعيدة ماضية. هناك مثل حديث يمكننا أن نستشهد به (إن كنا لسنا بالتكبر الكافي الذي يمنعنا أن نفعل ذلك) من قصة "الرياح تهب في أشجار الصفصاف" حيث يقترب رات Rat ومول Mole من بان Pan على سطح الجزيرة فيهمس Mole وهو يلتقط أنفاسه ويرتعد:

- رات! هل أنت خائف؟
- يدمدم للفأر رات وعيناه تشع بحب لا ينطق به.
- خائف؟ خائف منه؟ أبداً أبداً. ومع ذلك ومع ذلك.

عزيزي Mole إني خائف.

ولنرجع إلى الوراء قدر حوالي قرن من الزمان، سنجد أمثلة وفيرة لدى (الشاعر الإنجليزي) وردزورث Wordsworth (١٧٧٥-١٨٥٠) ربما أعظمها ذلك المقطع الموجود في الجزء الأول من "الافتتاحية" Prelude حيث يصف تجربته وهو يجذف في النهر داخل القارب المسروق. ونرجع للوراء أكثر لنجد مثال نقي وقوي لدى (المؤلف والمترجم الإنجليزي) مالوري Malory (القرن الخامس عشر) عندما نرى جلاماد وقد ابتدأ يرتعد عند مواجهة جسده اللحمي لهذه الأشياء الروحية.

في بداية حقبتنا هناك مثال في سفر للرؤيا حيث يقع الكاتب عند قدمي للمسيح كإنسان ميت.

في الأدب الوثني نجد الصورة التي يرسمها لنا (الشاعر الروماني) أوفيد Ovid (٤٣ ق.م) عن الهوة المظلمة التي تقع أسفل جبل أفونتين Aventine. يستطيع المرء أن يصفها لأول وهلة ويقول أن المكان مسكون أو هناك حضور ما في هذا المكان.

كذلك (الشاعر الروماني) فيرجيل Virgil يصف لنا قصر لاتينوس (ملك ذكره فيرجيل في إحدى قصصه الأسطورية) ويقول عنه إنه مهوب، ملئ

بالأشجار وقداسة الأيام الأولى للنص اليوناني الذي ربما ينسب لأشيلوس Aeschylus يحدثنا عن الأرض، البحر والجبل اللذين يرتعدون تحت نظره عين سيدهم المفزعة.

أيضاً أبعد من ذلك، يحدثنا حزقيال عن البكرات في كتابة وكيف أنها كانت عالية ورهيبة (حزقيال١:١٨). كذلك يعقوب يقول عند صحوته من النوم: ما أرهب هذا المكان! (تكوين٢٧:١٧) تاريخياً نحن لا نعلم إلى أي زمن يبعد هذا الشعور لدى الإنسان بالتأكيد كان الإنسان الأول يؤمن بأشياء تستطيع أن تحرك فينا هذا الشعور إن اعتقدنا فيها. لذا يبدو ومحتملاً أن يكون الإحساس بالهيبة نتيجة الشعور بالوجود الروحي الخارق قديماً قدم البشرية نفسها. لكن اهتمامنا الأولى لا ينصب على تاريخ ظهور هذا الشعور وإنما الشيء المهم هو أنه وُجد بطريقة ما وأنتشر ولا يفارق الذهن رغم النمو المعرفي والحضاري.

إذاً هذه الرهبة أو الهيبة ليست نتيجة للكون المرئي. فليس هناك أي إمكانية للجدل حول كيفية التحول من الشعور بمجرد الخطر إلى الشعور بالغير مألوف أو الدخيل ثم إلى الشعور بالوجود الروحي الخارق التام.

يمكنك القول إنه يبدو لك من الطبيعي جداً للإنسان الأول المحاط بالمخاطر الحقيقية التي تسبب خوفه أن يخترع ما يسمى بالغير مألوف أو الدخيل، أو ما يسمى بالوجود الروحي الخارق. وذلك صحيح من ناحية ولكن لابد لنا أن نفهم ما نعنيه. أنت تشعر إن ذلك شيء طبيعي لأن لديك نفس الطبيعة البشرية التي كانت لأجدادك البعيدين فأنت تتخيل نفسك وأنت تتفاعل مع المخاطر التي قد تواجهك وأنت بمفردك بنفس طريقة أجدادك وهذا التفاعل أو رد الفعل هو بالتأكيد طبيعياً لأنه يتماشى مع الطبيعة البشرية.

ولكنه ليس طبيعياً بتاتاً أن تكون فكرة الغير مألوف الدخيل أو الوجود الروحي الخارق موجودة أساساً في الشيء الخطير، أو أن يكون أي تصور للخطر أو أي استياء من الجروح أو الموت الذي قد يسببه هذا الخطر هو الذي

أعطى إدراك ولو بسيط عن الرهبة الروحية أو الوجود الروحي المهوب وذلك لعقلية لم تفهم وتعي ذلك من قبل.

عندما يعبر الإنسان من الخوف الجسدي إلى الفزع أو الهيبة، فهو يقوم بمجرد قفزة ويدرك شيئاً لا يمكن أن يوضح نفسه من خلال الحقائق الطبيعية والاستنتاجات المنطقية، كما يحدث في حالة الخطر.

كل المحاولات لتفسير الوجود الروحي الخارق تفرض مسبقاً أن التفسير موجود. فمثلاً يرى المختصين في علم الإنسان أنه مشتق من الخوف من الموتى دون إعطاء تعليل لأن يسبب الموتى ذلك الشعور الغريب مع الأخذ في الاعتبار إنهم بالتأكيد أقل البشر خطورة.

في مواجهة هذه المحاولات لابد لنا أن نصر أن الرهبة أو الهيبة هم في مقياس مختلف عن الخوف.

إنهم نوع من التفسير الذي يعطيه الإنسان للكون أو الانطباعات التي يسببها له الكون.

إن حاولنا أن نسرد المزايا الشكلية التي تصف شيء جميل لمخلوق ليس له أي خبرة جمالية سابقة فلن يعبر هذا السرد بالنسبة له عن جمال الشيء ولن يعطيه ولو فكرة ضئيلة عن معنى الجمال بالنسبة لنا. كذلك بالنسبة للوجود الروحي الخارق أو بالنسبة للغير مألوف الدخيل فأي وصف واقعي لهم مشتق من البيئة الإنسانية فلن يعبر عنهم أو حتى يعطي ولو فكرة بسيطة عنهم.

في الواقع يبدو أنه هناك وجهتان للنظر عن الهيبة. يمكننا أخذهما في الاعتبار. فأما أن تكون مجرد التواء (اعوجاج) يحدث لذهن الإنسان بدون أي سبب موضوعي.

ولا يخدم أي وظيفة حيوية ولكن مع ذلك لا يبدو أنه يميل لمفارقة ذلك الذهن الكامل النمو، كذهن شاعر أو فيلسوف أو قديس. وأما أن تكون الهيبة عبارة عن اختبار مباشر لشيء بالحقيقة خارق وعند إذ يكون الاسم المناسب لها هو الوحي.

إن الشيء الممتلئ بالحضور الروحي ليس هو هو الشيء الحسن أخلاقياً. وإذا ترك الإنسان الممتلئ بالهيبة ليفكر في عزلة فسوف يصل بتفكيره أن الوجود الروحي الخارق أبعد من فكرة الخير والشر.

وبهذا نصل للفرع الثاني أو العنصر الثاني للديانة.

جميع البشر الذين عرفهم التاريخ كان لهم نوع ما من الأخلاقيات، أي أنهم يشعرون تجاه بعض التصرفات باختبارات يمكن التعبير عنها بالكلمات الآتية: "يجب على" أو "لا يجب على" هذه الاختبارات تشبه الشعور بالهيبة من حيث نقطة واحدة ألا وهي عدم إمكانية التوصل إليها منطقياً من البيئة أو من التجارب الجسدية التي يمر بها الإنسان الذي يشعر بتلك الاختبارات.

يمكنك أن تتوع في قولك فيما بين "أريد" و "إنني مضطر" و "يستحسن" و "لا أجرؤ" كما تشاء دون أن تحتوي كلماتك على حتى ما ينم عن كلمات "يجب على" أو "لا يجب على" ومرة أخرى، فإن المحاولات التي تسعى لإعطاء الاختبار الأخلاقي تفسير مختلف تفرض مسبقاً نفس الشيء الذي تحاول تفسيره. مثال ذلك المحلل النفسي الذي يستنتج الاختبار الأخلاقي من حالة قتل أحد الوالدين الموجود فيما قبل التاريخ.

إن كان قتل أحد الوالدين قد أدى إلى الإحساس بالذنب فذلك لأن البشر شعروا بأنه كان لا يجب عليهم فعل ذلك: إن لم يشعروا بذلك فليس ممكناً أن يسبب القتل أي إحساس بالذنب.

الأخلاقيات تشبه الشعور بالحضور الروحي في كونها قفزة يتخطى بها الإنسان أي معطيات تتبع من وقائع التجربة كذلك تتميز بصفة واحدة لا يمكن تجاهلها. الأخلاقيات المقبولة لدى البشر يمكن أن تختلف ولكنها متشابهة في قاعدتها رغم الادعاءات بعكس ذلك، ولكن كلها تتفق في كونها توصى بسلوك يعجز الذين يتبعونها أن يمارسوه. يقف بهذا كل البشر سواسية محكوم عليهم، ليس بقانون أو أخلاق غريبة دخيلة بل بقوانينهم وأخلاقياتهم وبالتالي جميع البشر عندهم شعور بالذنب.

ثاني عنصر في الديانة هو ليس إدراك ومعرفة قانون أخلاقي فحسب بـل الموافقة عليه وفي نفس الوقت عصيانه.

هذا الإدراك لا يعد نتيجة منطقية أو غير منطقية لوقائع للخـبرات، فلـم نكن لنجده في خبراتنا إن لم نكن نحن قد أتينا به وأحضرناه فيها.

فهو إما وهم ليس له تفسير وإما وحي.

إن الاختبار الأخلاقي بعيد كل البعد أن يكون هو نفسه اختبـار الوجـود الروحي الخارق. فيمكن أن يوجدوا معاً لفترات طويلة دون إقامة نقطة اتصال متبادل.

ففي أنماط كثيرة من الوثنية نجد أن عبادة الآلهة تشترك في قليل جداً مما تتطرق إليه المجادلات الأخلاقية الفلسفية.

المرحلة الثالثة في تطور الديانة تقوم عندما يحدد الإنسـان هويـة هـذه الأخلاقيات، حينما يصبح هذا الحضور الروحي الخارق الذي يُشعره بالهيبـة هو الوصي على الأخلاقيات التي يشعر الإنسان نحوها بالاحترام.

مرة أخرى قد يبدو لك كل هذا طبيعي جداً، ما الذي يمكن أن يكون أكـثر طبيعية بالنسبة لإنسان همجي تسكنه الهيبة والذنب في نفس الوقت من أن يفكر أن القوة التي ترهبه هي في نفس الوقت السلطة التي تحكم على ذنبه؟

إنه بالفعل شيء طبيعي بالنسبة للبشرية،. ولكنه ليس واضح بـالمرة. إن سلوك الكون الفعلي الذي يسكنه الوجود الروحي الخارق لا يحتمل أي تشـابه مع السلوك الذي تطلبه الأخلاقيات مننا.

سلوك الكون يبدو ضائع، قاسي وغير عادل أما السلوك الذي تدعو إليـه الأخلاقيات فهو يُحتم علينا الصفات المضادة. ولا يمكن أن نعطي وصف لكـلا من الاثنين يحقق ما يتمناه الناس حيث إن كلاهما لا يتمم أماني أحد من البشر.

فنحن لا نتمنى شيء أقل من أن نرى القانون الـذي سـلطته المطلقـة لا نحتملها، مدعم أيضاً بادعاءات الحضور الروحي التي لا تحصى.

هذه القفزة تعد الأكثر غرابة بالمقارنة بالقفزات الأخرى التي تحدث فـي تاريخ البشرية الديني. لا يعد غير طبيعي أن يكون هناك قطاع من الأجنـاس البشرية قد رفض تلك القفزة. فالديانات الغير أخلاقية كذلك الأخلاقيات الغـير دينية كانت موجودة ولازالت موجودة. ربما هناك شعب واحد قام بتلك الخطوة كشعب نتيجة لقراره التام، وأقصد بذلك الشعب اليهودي: ولكن الكثـير مـن الأشخاص من كل زمان ومكان قد قاموا بنفس الخطوة وهؤلاء هم الوحيديـن الذين كانوا في مأمن من الممارسات الفاحشة والهمجية الخاصـة بالعبـادات اللاأخلاقية أو أيضاً في مأمن من برودة وبؤس البر الذاتي للأخلاقية البحتة.

وإذا حكمنا من ثمارها، نجد أن تلك الخطوة اتجهت نحو نمـو صحـي. ورغم أن المنطق لا يلزمنا بأخذ تلك الخطوة فمن الصعب مقاومتـها، فـهي تقتحم حتى الوثنية والحلولية (مذهب يدعو إلى عدم التفرقة بين الله والعـالم)، بل وحتى الرواقية (مذهب فلسفي يقول أن كل شيء في الطبيعة يوجد بـالعقل الكلي والقدر) تجد نفسها تسجد لله شاءت أم أبت.

مرة أخرى يمكن أن يكون ذلك جنون، جنون وراثي للإنسان والغريب أن له نتائج سعيدة أو أن يكون "وحي". وإن كان ذلك وحياً، فبالحقيقة وبـالصدق يكون كل البشر مباركين بسبب إبراهيم، حيث أن اليهود هم الذين أطلقوا علـى ذلك الوجود المهيب الساكن قمم الجبال المظلمة وفي السحاب لفظ الرب العادل الذي يحب العدل.

الفرع أو العنصر الرابع للديانة هو عبارة عن حدث تاريخي. هناك إنسان ولد بين هؤلاء اليهود، وإدعى ٣ أشياء:

- كونه هو نفسه.

- كونه ابن.

- كونه واحد مع.

الشيء المهوب الساكن في الطبيعة والمعطي للقانون الأخلاقي.

يصدمنا هذا الإدعاء للغاية، فهو يحتوي على تناقض بل إنه مفزع بالنسبة لنا مما يجعلنا نكتفي بالنظر إليه بنظرة سطحية بسيطة.

هناك احتمالان واردان بالنسبة لذلك الإنسان. إما أن يكون معتوه معجب بنفسه من نوع كريه للغاية، أما أن يكون هو بالضبط ما قال عن نفسه. ليس هناك حل وسط.

إن كانت كل المعلومات المدونة تجعل أول فرض غير مقبول فيجب عليك أن تخضع بالثاني. وإن فعلت ذلك فسوف يصبح كل ما يزعمه المسيحيين قابل للتصديق: أي أن ذلك الإنسان قُتل ومع ذلك ظل حي وأن موته هذا قد اثر تأثير حقيقي بطريقة لا يفهمها العقل البشري في علاقتنا بذلك السيد المهوب والعادل وذلك التغيير كان في صالحنا.

هل الكون كما نراه من صنع خالق حكيم وصالح أم انه وليد الصدفة، أو عدم الاكتراث أو الضغينة، إن كنا نتسأل هذا السؤال فذلك يكون بمثابة حذف لعوامل مؤثرة منذ البداية في الإشكالية الدينية.

إن المسيحية ليست نتيجة جدل فلسفي عن أصل الكون: إنها حدث تاريخي مروع يعقب ذلك التحضير الروحي الطويل للبشر الذي قمت بوصفه.

إنها لا تشكل نظام يجب أن تتناسب معه مشكلة الألم المعقدة. لأنها هي نفسها حقيقة معقدة يجب أن نجعلها تتناسب مع أي نظام نصنعه.

ذلك يعني أن المسيحية تخلق مشكلة الألم ولا تحلها.

فلن يكون الألم مشكلة بالنسبة لنا إلا في حالة واحـــدة هـــي: مواجــهتنا اليومية لهذا العالم الأليم وفي داخلنا ما يجعلنا نثق أن حقيقة هذا الكون المطلقة عادلة بل ومحبة.

لماذا تبدو لي تلك الثقة في محلها؟ لقد أشرت إلى ذلك بعض الشيء. إنها لا تُقدر بما يمليه علينا المنطق.

في كل مرحلة دينية يمكن للإنسان أن يثور، وإن كانت ثورتـــــه عنيفـــة بالنسبة لطبيعته فهي ليست باطلة أو مزيفة. إذا استطاع الإنســـان أن يغمــض عيناه الروحيتان عن ذلك الحضور الروحي الخارق فهو بذلك يعزل نفسه عـن نصف الشعراء العظام والأنبياء من جنسه، يعزل نفسه عن طفولته، وأخـــيراً يعزل نفسه ويحرمها من غنى وعمق الاختبار الغير مشروط.

يمكن للإنسان كذلك أن يعتبر القانون الأخلاقي مجرد وهم وبذلك يستقطع نفسه من القاعدة المشتركة للإنسانية. يمكنه أن يرفض أن ينســـب للحضــور الروحي الخارق صفة العدل ويبقى ذلك همجي، يعبد الجنس، أو الأمــوات، أو قوي الحياة أو المستقبل. ولكن تكلفة ذلك باهظة جداً.

وعندما نصل للخطوة المتممة إلا وهي ذلك التجسد التاريخي تصبح ثقتنــا قوية جداً (في حقيقة الوجود العادلة والمحبة).

الغريب أن قصة التجسد تشبه العديد من الأساطير الموجودة في الأديــان ومع ذلك فهي ليست مثلهم: فهي ليست في متناول المنطق العقلي للإنسان: أي أنه لا يمكن أن نكون قد ابتدعناها.

هي أيضاً لا تحتوي على الشك الأولى الواضح في الحلولية أو في قوانين نيوتن الطبيعية.

وظاهرياً تحتوي تلك القصة على الطابع الاســتبدادي والفطــري الــذي يحاول العلم الحديث تعليمه لنا بتروي في هذا العالم العنيد.

عالم "الطاقة فيه مصنوعة في قوالب ولا يمكن التنبؤ بمحتواها الكمي، فيه السرعة غير محدودة، فيه التفاعلات غير الإنعاكسية تعطـــي للزمـــن اتجـــاه حقيقي، والفضاء الخارجي سواء كان ثابت أو دوري لم يعد يتحرك من بدايـــة حقيقية لنهاية حقيقية كما يحدث في الروايات الدرامية.

لو كان من الممكن أن تصلنا رسائل من قلب الحقيقة فسوف نجـــد فيـــها نفس الفجائية، نفس التفاصيل الدرامية والعنيدة التي سوف نجدها فـــي إيمـــان المسيحي. إنه يحتوي على لمسة الأستاذ المتقنة، يحتوي على خشـــونة وقـــوة الحقيقة. الحقيقة التي لم نصنعها نحن، ولم تصنع خصيصاً لأجلنا أيضـــاً بـــل الحقيقة التي تصدمنا حينما نواجهها.

فإذا تتبعنا التسلسل الذي سيق فيه الإنسان، طبقاً للقواعد التي ذكرناهـــا أو طبقاً لقواعد أفضل، وصرنا بالتالي مسيحيين، فسوف تواجهنا مشكلة الألم.

الفصل الثاني

قدرة الله الكلية

لا شيء فيه تناقض يندرج تحت قدرة الله الكلية.

توما الإكويني

"إن كان الله صالح فإنه سيود أن يجعل كل مخلوقاته في أتم السعادة، وإن كان الله كلي القدرة فإنه سوف يستطيع أن يفعل ما أراده. ولكن المخلوقات ليست سعيدة، لذا فإن الله ينقصه الصلاح أو القدرة أو الاثنين معاً".

هذه هي مشكلة الألم في أبسط صورها.

ويمكننا أن نرد على هذا التساؤل إن استطعنا إثبات أن الكلمات "صالح"، "كلي القدرة" وربما أيضاً كلمة "سعيد" تتضمن أكثر من معنى، لأنه إن كانت التفسيرات الدارجة لهذه الكلمات هي الأفضل أو الوحيدة الممكنة فإنه في هذه الحالة سوف يصبح الجدال لا إجابة له.

في هذا الباب سوف أقوم ببعض التعليقات عن فكرة القدرة الكلية وفي الباب الذي يليه عن فكرة الصلاح.

القدرة الكلية[1] تعني "القدرة على فعل كل شيء أو أي شيء" ويخبرنا الكتاب المقدس أن "كل شيء مستطاع لدى الله".

أنه إن كان الله موجود وكذلك صالح فهو بالتالي سيفعل هذا أو ذلك ونقوم بإظهار أن ما يقترحه الشخص غير المؤمن مستحيل فعله، فيفحمنا بالإجابة الآتية: "ولكنني كنت أظن أن الله من المفروض أنه قادر على فعل أي شيء" وهنا تظهر مسألة الاستحالة (عدم الإمكانية) في الاستعمال العادي لكلمة "مستحيل" أو لا يمكن نجد أنها تستلزم عبارة مشروطة تبدأ "بإلا إذا".

---

[1] المعنى اللاتيني هو: القدرة على كل شيء وفي كل شيء. وهنا أعطى ما في ظني هو المعنى الدارج للكلمة.

وهكذا، يستحيل عليَّ رؤية الشارع وأنا الآن جالس في مكاني أكتــب. أو بمعنى أخر يستحيل على رؤية الشارع "إلا إذا" صعدت إلى أعلى طابق حيــث أكون من العلو بما يسمح لي برؤية المبنى المقابل من فوق.

إذا كانت ساقي مكسورة فإنني سوف أكمل قولي هكذا.

- "ولكن يستحيل الصعود إلى الطابق الأعلى" بمعنى أن ذلك غير ممكن إلا إذا جاء بعض الأصدقاء ليحملونني. دعونا ننتقــل لمجــال مختلــف مــن الاستحالة ونقول: "إنه من المستحيل بكل المقاييس مشاهدة الشارع طالما أنــي باقي في مكاني وكذلك المبنى المقابل باقي في مكانه. وربمــا يضيــف أحــد ويقول" إلا إذا كانت طبيعة الفراغ والبصر مختلفة عن وضعها الحالي".

لا أعلم كيف سيجيب أفضل الفلاسفة والعلماء على ذلك ولكننــي ســوف أجيب كالآتي: "لا أدري إن كان من الممكن أن تختلف طبيعة الفراغ والبصــر كما اقترحت".

من الواضح الآن أن كلمتي "من الممكن" تشير هنا إلى نوع مطلــق مــن الإمكانية أو اللاإمكانية يختلف عن الإمكانية واللاإمكانية النسبية التي طرحناها قبلاً. وبهذا العهد الجديد لا يمكنني القول إن كانت الرؤية خلف الأركان ممكنة أم لا، لأنني لا أدري إن كانت تحتوي على تناقض ذاتي أم لا.

ولكنني أعلم جيداً أنها إن كانت ذاتية التناقض فهي بالتأكيد مستحيلة.

يمكن أن نطلق أيضاً على الشيء الغير ممكن المطلــق الاســم الأتــي: المستحيل ذاتياً (أو جوهرياً) لأنه يحتوي على عدم الإمكانية في داخلــه، فــلا يفترضها من الأشياء الأخرى الغير الممكنة، التي تترتب بدورها على بعضــها البعض. كذلك لا تلازمه عبارة شرطية تبدأ بإلا إذا.

فهو شيء مستحيل في كل الظروف، في كل مكان ولكل فــاعل. (كــائن agent).

"كل كائن" هنا تتضمن الله بذاته.

إن قدرته الكلية تعني القدرة على فعل كل شيء ممكن ذاتياً وليس القـدرة على فعل ما هو مستحيل ذاتياً أو جوهرياً. يمكنك أن تنسـب لله المعجـزات ولكن ليس العبث. وذلك ليس تقليلاً لقدرة الله.

إذا كنت تختار أن يقول: يمكن لله أن يعطي لمخلوق إرادة حـرة وفـي الوقت نفسه يمنعها عنه" فإنك لم تنجح في قول أي شيء يخص الله: التراكيب اللفظية العديمة المعنى لا تكتسب فجأة معنى لمجرد أننا نضـع قبلـها هـاتين الكلمتين: "الله يستطيع".

تظل الحقيقة هي أن كل شيء مستطاع لدى الله ولكـن الأشـياء الذاتيـة الاستحالة ليست إلا لا شيء (بدون كيان).

وهكذا لم يعد تنفيذ أو القيام باختيارين معاً كلاهمـا مـانع للآخـر أمـر مستطاع لدى الله مثله في ذلك مثل أضعف مخلوقاته، وذلك ليـس لأن هنـاك عائق أمام قدرته في هذه الحالة ولكن لأن العبث أو اللاشيء يظل كذلك حتـى عندما نتحدث عن الله. على أية حال، يجب أن نتذكر أن المفكرين كثـيراً مـا يقعون في أخطاء، سواء عندما يجادلون انطلاقا من معلومات خاطئة أو سـواء عندما يهملون في طريقة تناول الجدال في حد ذاته.

فنجد أنفسنا نفكر في إمكانية ما هو بالفعل مسـتحيل وكذلـك العكـس[٢]: (استحالة ما هو هو بالفعل ممكن).

ولهذا فعلينا أن نتوخى شديد الحذر عند تعريف هـذه الأشـياء الذاتيـة الإستحالة، التي تعجز عن القيام بها حتى قدرة الله الكلية.

وفيما يلي نموذج لما يمكن أن تكون عليه هذه الأشياء الذاتية الاسـتحالة أكثر منه تأكيداً لماهيتها.

إن "قوانين الطبيعة" التي لا ترحم ولا تـأخذ فـي الاعتبار معاناة الإنسان واستحقاقه والتي لا تتبدل بالصلاة، تبـدو لأول وهلـة

---

[٢] على سبيل المثال: إن الحيل السحرية الجيدة تتمثل في عمل شيء فيـه تنـاقض طبقـاً للمعلومات الواصلة للمتفرجين وقدرتهم على التفكير المنطقي.

إنها تعطي برهان قوي ضد صلاح وقدرة الله. وسوف أعرض فيما يلي كيف أن حتى القدرة الكلية لا تستطيع أن تخلق مجتمع من النفوس الحرة دون أن تخلق في نفس الوقت طبيعة "غير رحيمة" مستقلة نسبياً.

لا يوجد سبب يجعلنا نفرض أن الوعي بالذات، بمعنى أن يتعرف المخلوق على نفسه كذات، يمكن أن يوجد إلا بالمقارنة والمقابلة مع آخر أو مع شيء منفصل عن هذه الذات. حيث أن إدراكي لنفسي (أو لذاتي) لا يتحقق إلا بالمقابلة مع بيئة ما أو بالحرى بيئة اجتماعية مكونة من أنفس أخرى.

قد يشكل ذلك صعوبة في إدراك الله إن كنا مجرد مؤمنين بوجود إله: إلا أننا كمسيحيين نتعلم من عقيدة الثالوث المبارك أنه هناك ما يشبه "المجتمع" في الكيان الإلهي منذ الأزل وان الله محبة، ليس بمعنى أنها مجرد محبة طابعها أفلاطوني، ولكن لأن بداخل الله نجد تعاملات المحبة المتبادلة بشكل ملموس قبل كل الأكوان ومن ثم تخرج وتُنقل لكل المخلوقات.

مرة أخرى نقول أن حرية المخلوق يجب أن تعني حرية الاختيار: والاختيار يحتم وجود أشياء نختار من ضمنها.

لن يكون أمام مخلوق بدون بيئة محيطة أي فرصة للقيام باختيارات: وهكذا الحرية مثل اليقين بالذات (حيث أنهما تقريباً نفس الشيء) تتطلب وجود شيء أخر مختلف عن النفس.

إن أقل مستوى من اليقين بالذات والحرية يتمثل في إدراك المخلوقات لله وبناء على ذلك إدراك أنها مختلفة (أي أخرى) عن الله. إن سلمنا أنه من الممكن وجود مخلوقات تدرك الله ونفسها ولكنها لا تدرك مخلوقات أخرى فإنه في هذه الحالة سوف يكون لهم حرية لختيار واحد من اثنان: إما حب الذات أكثر من الله، إما حب الله أكثر من الذات.

ولكن لا يمكننا أن نتصور حياة تقتصر على مثل هذه الأساسيات وبمجرد أن نحاول أن نفكر في وجود مخلوقات أخرى تعرف بعضها البعض نجد أننا نصطدم بضرورة وجود "الطبيعة".

إن الناس عادةً ما يتحدثون كما لو أن التقـــاء العقــول ببعضـــها وإدراك بعضها البعض هو من أسهل ما يكون.

ولكنني لا أرى إمكانية حدوث ذلك إلا إذا وُجدوا في وسط مشترك يشـكل عالمهم الخارجي أو بيئتهم.

حتى أثناء محاولتنا المبهمة لتصور لقاء يحدث بين أرواح بدون أجســـاد فنجد أن فكرة وجود مكان مشترك ووقت مشترك للقاء تتسلل خلســـة لتعطـــي معنى للتقابل سوياً: إن المكان والزمان يعتبر ان بيئة في حد ذاتـــهما. ولكننـــا نحتاج لأكثر من ذلك.

إذا كانت أفكارك وعواطفك متاحة لي مباشرة مثل أفكـــاري وعواطفـــي الشخصية بدون أي علامة تدل على اختلافها أو وجودها خارج نفسي فكيـــف لي أن أميزها عنهم؟

وأية أفكار أو عواطف يمكن أن تبدأ في الحدوث لنا بدون أشياء نفكر فيها ونشعر بها؟

كلا، وهل أستطيع مبدئياً أن يكون لي تصور عن ما هو أخر أو ما هـــو خارجي عني دون اختبار "عالم خارجي"؟

كمسيحي يمكنك الإجابة بقول أن الله وأيضاً الشيطان في الواقع يؤثـــران في وجداننا بتلك الطريقة المباشرة بلا أي علامات أن ذلك التأثير خارجي.

نعم: والنتيجة هي أن أغلب الناس تظل تجهل بوجود الاثنين. وبناء علـــى ذلك يمكننا أن نفرض أنه إن كان تأثير الأرواح البشرية بعضها على بعـــض يحدث بصورة مباشرة وبطريقة غير مادية فإن اعتقاد أحد هذه الأرواح بوجود آخرين يعد في هذه الحالة نصر يحسب لصالح الإيمان والبصيرة.

وتحت هذه الظروف سوف يكون لي الآن التعرف على قريبي أصعـــب من التعرف على الله: لأن ما يصلني عبر العالم الخارجي مثل تقليد الكنيســـة، الكتاب المقدس، الحوار مع أصدقاء متدينين كل ذلك يســـاعدني علـــى إدراك تأثير الله على الآن.

ما يوجد لدينا هو بالضبط ما نحتاج إليه كمجتمع بشري شيء محـــايد، لا يكون أنا ولا يكون أنت، نستطيع نحن الاثنين أن نحركه ليمثل إشارات بيننا.

فإنني أستطيع التحدث إليك لأننا نستطيع نحن الاثنين أن نطلق موجـــات صوتية في الهواء الموجود بيننا. إن المادة التي تفصل النفوس عن بعضـــها، هي أيضاً التي تجمعها بعضها مع البعض. فإنها تسمح لكل واحد منا أن يكـون له شيء خارجي كما أن له شيء داخلي، لذا الأعمال الناجمـــة عـن الإرادة والتفكير تعتبر بالنسبة لي أصوات ولمحات، وهكذا تستطيع ليس فقط أن توجـد بل أن تظهر أيضاً وبالتالي يسعدني أن أتعرف عليك.

إذاً المجتمع يتضمن مجال أو عالم مشترك يتقابل فيه أعضاءه. وإن كـان بالفعل هناك مجتمع ملائكه كما كان عادةً المسيحيين يؤمنون، فيجب أن يكـون لديهم (الملائكه) مثل ذلك المجال أو العالم، شيء يكون بالنسبة لهم مثل "المادة" بالنسبة لنا. (مادة بمعناها الحديث وليس بالمعنى المدرسي) ولكـــن إن كـانت المادة تخدمنا كمجال محايد يجب أن يكون لها طبيعة ثابتة خاصة بها.

إن وجد عالم أو نظام مادي يسكنه فقط شخص واحد فسوف يتشكل بما يوافق رغباته بمعنى مثلاً أن "الأشجار سوف تتجمع خصيصـــاً لأجـل أن تمنحه الظل".

ولكنك إن وضعت في عالم يتبدل ويتغير بحســب أهوائـــي وميولـــي الشخصية فلن تستطيع التصرف فيه لأنك تفقد القدرة على ممارسة إرادتك الحرة.

ومن الواضح أيضاً أنك لن تستطيع أن تجعل وجودك معلوماً لـــدى، لأن المادة التي سوف تحاول بواسطتها عمل أية إشارات، ستكون كلها في الواقـــع تحت سيطرتي أنا لذا لن يكون ممكناً لك تحريكها.

كذلك إن كان للمادة طبيعة ثابتة وتخضع لقوانين لا تتغير، فلن تكون كـل حالاتها مقبولة بنفس الدرجة لروح ما ولن تكون كلها مفيدة له لذلـــك التجمـــع الفريد للمادة الذي يسمى بالجسد بنفس الدرجة إن كانت النار تريح ذلك الجسـد من على بعد مسافة معينه فإنها سوف تدمر إن نقصت هذه المسافة. إذاً هنـــاك

حاجه لاشارات الحظر هذه المنقولة عبر الألياف العصبية الخاصة بالألم حتى في عالم كامل .

هل يعنى ذلك إنه لا يمكن تجنب وجود عنصر الشر (في صوره الألم) في أي عالم ممكن؟ لا أظن ذلك: لأن إن كان حقيقي أن أقل خطيه تعتبر شراً لا يمكن حساب مقداره فإن الشر في صوره الألم يعتمد على درجة الألم نفسها لأن الألم عندما تقل شدته عن مقدار معين لا نخافه ولا نستاء منه إطلاقاً.

فلا أحد يزعجه هذا التسلسل: "دافئ- ساخن- ساخن جداً لاسع" الذي ينبهه أن يبعد يده عن مصدر النار. كما إنني أظن إن ذلك الألم البسيط في أقدامنا عند صعودنا للفراش بعد يوم ملئ بالسير يحتوي على بعض المتعة.

وهكذا إن كانت طبيعة المادة الثابتة تمنعها من أن تكون دائماً وفي كل أشكالها مقبولة بنفس الدرجة لنفس بعينها فبالتالي تقل إمكانية أن يكون توزيع المادة في العالم في كل الأوقات ملائم وممتع بنفس الدرجة لكل فرد في المجتمع.

إن كان رجل مسافر في اتجاه ما بحيث يتحرك نحو أسفل التل فإن رجل آخر ذاهب في الاتجاه المعاكس لابد أنه سوف يصعد لأعلى التل.

مجرد حصاة، إن وجدت حيث أريد فلا يمكن أن توجد حيث تريد أنت إلا بالمصادفة. فكل هذا بعيد كل البعد عن أن يكون شراً في ذاته: بل على النقيض فإنه يتيح فرص للإتيان بالتصرفات التي تنم عن اللياقة، الاحترام وعدم الأنانية، الصفات التي تعبر عن الحب، اللطف والتواضع.

ولكنها بالطبع تعطي مجال لشر عظيم يتمثل في التنافس والعدائية. وإن كانت النفوس حرة فلا يمكن منعها من التعامل مع المشكلة بروح التنافس بدلاً من اللياقة. وحينما تصل النفوس للعدائية الحالية فهي تستغل طبيعة المادة الثابتة لإيذاء بعضها الأخرى. فطبيعة الخشب الثابتة التي تسمح لنا باستخدامه كعامود تسمح لنا أيضاً باستخدامه لإصابة رأس قريبنا. وفي أغلب الأحيان، طبيعة المادة الثابتة تعني أن عندما يتقاتل البشر فالنصر يكون بالطبع للذي لديه أسلحة لكثر تقدماً، لديه مهارة وعدد حتى وإن كانت قضيته غير عادلة. ربما

يمكننا أن نتصور عالم يصحح فيه الله في كل وقت نتائج سوء استغلال خليقته لإرادتهم الحرة: وهكذا يصير عامود الخشب ليناً كالعشب حينما يستخدم كسلاح ويرفض الهواء أن يطيعني حينما أحاول أن أطلق من خلاله موجات صوتية تحتوي على أكاذيب وسباب.

سوف تكون التصرفات الخاطئة مستحيلة في عالم كهذا، وفيه ستكون حرية الإرادة باطلة، بل إن تتبعنا النتيجة المنطقية لهذا المبدأ؛ فإن الأفكار الشريرة سوف تكون مستحيلة لأن المادة المخية التي نستخدمها في التفكير سترفض أن تقوم بدورها عندما نحاول أن نصمم هذه الأفكار.

سوف تكون كل المواد المحيطة برجل شرير عرضة لتبدلات لا يمكن التنبؤ بها.

ورغم أن الله يستطيع في بعض المناسبات أن يغير طبيعة المادة ويحدث ما نسميه بالمعجزة، بل إنه بالفعل يفعل ذلك، إلا أن النظرية الأكيدة لعالم مشترك وبالتالي ثابت تتطلب أن تكون هذه المناسبات شديدة الندرة.

فمثلاً أثناء مباراة للعبة الشطرنج، يمكنك أن تقدم بعض التنازلات الاختيارية لمنافسك. وهذه التنازلات تتماشى مع قوانين اللعبة الطبيعية كما تتماشى المعجزات مع قوانين الطبيعة. بمعنى أن يمكنك أن تحرم نفسك من الطابية أو تسمح للأخر أن يتراجع عن خطوة لم يلتفت إليها جيداً.

ولكن إن قدمت تنازلات بما يوافقه في كل وقت فلن يكون هناك مباراة من الأساس حيث ستكون كل خطوة يقوم بما يمكنه الرجوع فيها وسوف تختفي قطعك كلها من اللعبة إن لم يناسب مكانها على الطاولة رغبته.

وهكذا الحال بالنسبة لحياة النفوس داخل عالم: هناك قوانين ثابتة، ضرورات سببيه يعقبها نتائج وأيضاً هناك النظام الطبيعي ككل.

كل ذلك يعد بمثابة حدود تحصر الحياة المشتركة للنفوس وهو أيضاً الشرط الأساسي أو الوحيد لقيام مثل هذه الحياة.

وإن حاولت أن تستثنى إمكانية الألم التي يتضمنها النظام الطبيعي ويحتمها وجود الإرادة الحرة فستجد أنك قد استثنيت الحياة نفسها.

وكما ذكرت قبلاً فإن البيان الذي قدمته عن الضرورات الجوهرية لعـالم ما هو إلا نموذج لما يمكن أن تكون عليه.

والله بعلمه الكلي هو الذي لديه المعلومات والحكمة لرؤية ومعرفة ماهيتها الحقيقية، وعلى أية حال لا يبدو إنها أقل تعقيداً مما ذكرت. ولا احتاج أيضاً أن أقول إنها معقدة فقط بالنسبة لقدرة الإنسان على الفهم.

لا يجب علينا أن نظن أن طريقة الله في بحث الأشياء تشبه طريقتنا التـي تأخذ بالواقع الأخير للأشياء (هنا: أن هناك أرواح أخرى موجودة) والظـروف المحيطة بها، بل هي عملية خلق واحدة قائمة بذاتها تماماً. وهي تبدو لنـا لأول وهلة كعملية خلق لأشياء كثيرة لا يوجد بينها علاقات متبادلـة يعقبـها خلـق لأشياء ضرورية بعضها لبعض.

بل يمكننا أيضاً أن نتخطى قليلاً مفهوم الاحتياج المتبادل كمـا وضحتـه وبحجم المادة في كونها ما يفصل الأرواح بعضها عن بعض مع كونها أيضـاً هي التي تجمع شمل هذه الأرواح. وهنا نجد الانفصال والمعية مـا همـا إلا صورتان لمفهوم تعددي واحد.

(التعددية: نظرية فلسفية تقول أن موجودات العالم ليست ظواهر لحقيقـة واحدة مطلقة ولكنها جواهر شخصية كثيرة مستقلة بعضها عن بعـض ولكـل منها صفات تخصه).

وكلما يتقدم بنا التفكير تبدو لنا وحدة عملية الخلق أكثر وضوحاً كما ندرك إنه من المستحيل أن نتعامل مع عناصر الخلق كما لو كان ممكناً حذف أحدهـا أو وضعه في غير مكانه.

ربما يكون عالمنا هذا ليس أفضل عالم ممكناً ولكنه الوحيد الممكن!

وحينما نقول هنا عالم ممكن ذلك يعني فقط العالم (أو العالمين) الذي كـان يستطيع الله أن يخلقه ولم يفعل. ومرة أخرى حينما نقول "كـان يسـتطيع الله" فذلك يعكس (تعبيرات وتصـورات إنسـانية) التـي لدينـا عـن حريـة الله (Anthropomoplic).

(التشبيهية: خلع الصفات الإنسانية على الله وتشبيهه بالإنسان) فأيا كان معنى الحرية البشرية فإن الحرية الإلهية لا تعني التذبذب فيما بين عدة بدائل أو اختيار أحدها. إن صلاح الله الكامل لا يتجادل حول الهدف الأخير المراد الوصول إليه كذلك حكمته الكاملة لا تتجادل حول أفضل الوسائل لتحقيق هذا الهدف. فحرية الله تعني أنه لا يوجد سبب آخر غير ذاته ينتج أفعاله وأنه لا يوجد معوقات خارجية تستطيع أن تعرقلها. فهي تنبع كلها وتسبح في صلاح وقدرة الله الكلية.

وبهذا نصل لموضوعنا التالي ألا وهو الصلاح الإلهي، فإلى هنا لم نذكر عنه شيء، ولم نحاول الإجابة على وجهة النظر الإعتراضية التي تفرض إنه إذا كان على الكون قبول إمكانية الألم والمعاناة منذ البداية فإنه كان حرياً بالله الكلي الصلاح ألا يخلق هذا الكون من الأصل.

وهنا يجب على أن أحذر القارئ أنني لن أحاول أن أثبت أن الخلق أفضل من عدم الخلق: فلست على علم بأي مقاييس أو أوزان إنسانية يمكن بها قياس أو وزن هذا السؤال المدهش والمثير للرهبة. لأننا يمكننا مقارنة حالة واقعية موجودة بحالة أخرى، أما إن حاولنا أن نقارن الوجود باللاوجود فلن يكون ذلك إلا مجرد كلمات.

كأن أقول: "كان سوف يكون أفضل بالنسبة لي ألا أكون موجوداً". فماذا يعني ذلك "بالنسبة لي"؟

كيف لي أن أستفيد بعدم وجودي إن لم أوجد؟

إن قصدنا وهدفنا هنا أبسط بكثير: وهو أن نكتشف كيف يمكننا- بعد أن رأينا ذلك العالم المتألم وتأكدنا طبقاً لأسس أخرى من صلاح الله- أن ندرك أن ذلك الصلاح لا يتناقض مع الألم.

الفصل الثالث

صلاح الله

المحبة تترفق، المحبة تغفر... ولكن لا يمكن أن تتصالح المحبة مع ما هو قبيح... ولهذا لا يمكن للمحبة أن تتصالح مع خطيئتك، لأن الخطية في حد ذاتها لا يمكن أن تتغير. ولكن يمكنها أن تتصالح مع شخصك، لأن هذا يمكن إصلاحه.

تراهيرب. Traherne (قرون من التأمل) الباب الثاني: ٣٠

إن أي إمعان في صلاح الله يعرضنا على الفور للمعضلة الآتية. فمن ناحية، إن كانت حكمة الله تفوق حكمتنا فيجب أن يختلف حكمه على الأمور في أوجه عديدة عن حكمنا، وينطبق ذلك على الخير والشر. وهكذا ما يبدو لنا خيراً يمكن أن في عينيه ليس خيراً وما يبدو لنا شراً يمكن أن لا يكون كذلك.

من ناحية أخرى إن كان حكم الله الأخلاقي يختلف عن حكمنا فما يبدو أسود بالنسبة لنا فسوف يكون أبيض لله.

إننا نؤكد أن صلاح الله مختلف تماماً عن مفهومنا للصلاح لذلك نحن لا نعني أي شيء حينما نقول أن الله صالح لأن ذلك بمثابة أن نقول الله هو ما لا نعلمه.

وهكذا لا يمكن أن تشكل صفة مجهولة تماماً عن الله أساس أخلاقي يجعلنا نحبه ونطيعه.

إن كان لا يعني "بمفهومنا" صالح فسوف نطيعه (إن أطعناه) فقط على أساس الخوف وسوف يكون من الواجب علينا أن نطيع شيطان كلي القدرة بنفس المقدار.

إن كنا فاسدين تماماً فإن فكرتنا عن الخير لا تساوي شيئاً. وهكذا تحول عقيدة فساد الإنسان التام المسيحية لشكل من أشكال العبادة الشيطانية.

ولكي نتخلص من تلك المعضلة، يجب أن نتأمل ما يحدث على مستوى العلاقات الإنسانية. فحينما ينتقل رجل له مبادئ أخلاقية متدينة لمجتمع أفضل

ذو حكمة أعلى فإنه يتعلم تدريجياً أن يتقبل مبادئه. ويمكنني شرح هذه العملية بدقة كافية حيث أنني مررت شخصياً بها.

فعندما أتيت في بادئ الأمر إلى الجامعة كنت في أشد حالة من انعدام الضمير الأخلاقي يمكن أن يكون عليها إنسان. الاستياء البسيط من العنف ومن البخل كان أقصى ما يمكنني أن اصل إليه. كانت العفة، الصدق وبذل الذات بالنسبة لي أشبه لما تعنيه الموسيقى الكلاسيكية لفرد. أو من رحمة الله أنني وجدت نفسي في وسط مجموعة من الشباب الذين يعلمون ويحاولون طاعة القوانين الأخلاقية. (لم يكن أحد منهم مسيحي مؤمن). لقد كان قربهم الفكري والخيالي مني كافي لأن تنشأ بيننا علاقة حميمة على الفور. ومع ذلك حكمهم على الخير والشر كان مختلفاً تماماً عني. غير مطلوب مني في هذه الحالة إطلاقاً أن أتعامل مع ما كان يسمى حتى الآن أسود على إنه أبيض.

فمع أن الأحكام الأخلاقية الجديدة تبدل أحكام الإنسان السابقة إلا إنها لا تناقضها على مستوى العقل بل تسودها وتلك السيادة تكون متوقعة.

وعندها لا يعتريك أي شك بخصوص الوجهة التي تتحرك نحوها: لأن هذه الأحكام الأخلاقية التي تبدو وكأنها الأفضل تتكامل مع الخير المتناثر داخلك.

وعظمة هذا الاختبار هي أن الإنسان حينما يتعرف على تلك المقاييس الجديدة يشعر في نفس الوقت بالخجل والذنب لأنه يدرك أنه لا يصلح لأن ينتمي لذلك المجتمع إن أخطأ.

علينا إذاً النظر إلى صلاح الله في ضوء هذه الاختبارات. فبلا أي شك تختلف فكرته عن الصلاح عن فكرتنا، ولكن لا يجب عليك أن تخاف من أن يطلب منك أن تعكس مقاييسك وأنت تقترب من ذلك الصلاح.

حينما يصبح الاختلاف بين الأخلاقيات الإلهية وإخلاقيتك أنت واضحاً بالنسبة لك فلن يساورك أي شك في أن التغيير المطلوب منك هو بالفعل نحو ما تسميه الأفضل.

إن الصلاح الإلهي يختلف عن صلاحنا ولكنه لا يختلف اختلاف تام يشبه اختلاف الأبيض والأسود إنه مثل دائرة هندسية صحيحة تماماً حينما تقارن

بعجلة يحاول طفل أن يرسمها لأول مرة. وحينما يتعلم للطفل الرسم سوف يدرك أن الدائرة التي يستطيع عملها الآن ما هي إلا ما كان يحاول أن يفعله منذ البداية. إن الكتاب المقدس يتضمن مثل هذه العقيدة. فإن كانت مقاييس الله مختلفة تماماً عن المقاييس التي يعرفها البشر والتي فشلوا في ممارستها فسوف تكون دعوة المسيح للتوبة بلا معنى. إنه يخاطب حكمنا الأخلاقي الموجود مسبقاً: "ولماذا لا تحكمون بالحق من قبل أنفسكم" (لوقا١٢:٥٧).

إن الله يتحاجج مع البشر على أساس نظرتهم لمفاهيم مثل العرفان بالجميل، الوفاء، والعدل، ويضع نفسه في قفص الاتهام أمام مخلوقاته ويقول "ماذا وجد فيّ آباؤكم من جورٍ حتى ابتعدوا عني" (ارميا٢:٥).

أتمنى أن يكون الآن من المناسب، بعد هذه المقدمة، أن أطرح مسألة إمكانية نقض المفهوم أو التصور الذي يسود أفكارنا بخصوص صلاح الله رغم أننا نادراً ما نعبر عنه بكلمات كثيرة. حينما نتكلم عن صلاح الله فإننا نعني الآن فقط محبته. ونحن في ذلك صائبين.

وفي هذا المضمون، المحبة تعني لمعظمنا الرفق أو الترفق. أي الرغبة في رؤية الآخرين أكثر من النفس في سعادة. السعادة بمعناها البسيط، ليس بطريقة أو أخرى.

كم سيكون ممتعاً بالنسبة لنا وجود إله يجارينا في أي شيء نبغي عمله بقوله: "إن كان البشر سعداء فلا أهمية لأي شيء أخر". في الواقع نحن نبغي بشدة وجود جد سماوي أكثر من أب سماوي.

نريد شيخ محسن يرغب فقط في رؤية الشباب يستمتعون بأنفسهم. ويا حبذا لو كانت خطته لهذا الكون بسيطة بحيث يمكننا القول في أخر كل يوم: للجميع أمضوا وقتاً ممتعاً.

إنني أقر أن ليس كل الناس يعبرون عن نظريتهم اللاهوتية بنفس الألفاظ، ولكن هناك مفهوم أو تصور لا يختلف كثيراً عن ذلك في خلفيات كثير من العقول.ولست استثنى نفسي من ذلك: فكم كنت أود العيش في كون يجري بهذه الوتيرة. ولكن بما أنه من الواضح جداً عكس ذلك وبما أن لدى أسباب تجعلني

أؤمن أن الله محبة فإنني أصل إلى هذه النتيجة: أن مفهومي عن المحبة يحتاج للتصويب.

ولعلي تعلمت، حتى من الشعراء، أن المحبة أحد وأبهى من مجرد أن تكون ترفق. حتى أن (الشاعر الإيطالي) دانتي Dante(١٢٦٥- ١٣٢١) يعبر عن الحب بين الجنسين بسيد حاد الملامح. تحتوي المحبة على الرفق ولكن لا يمكن اعتبارهما مترادفان.

إن الترفق بمعناه الموضح أعلاه حينما ننزع منه العناصر الأخرى الخاصة بالمحبة نجد إنه يتضمن نوعاً من المبالاة البديهية تجاه الشيء أو الشخص الذي يترفق به كما يتضمن أيضاً شيئاً مثل الازدراء.

فالرفق أو الترفق يتقبل بسهولة إزالة الشيء أو الشخص موضوع الرفق. فلقد قابلنا كلنا أناساً يدفعهم دائماً رفقهم إلى قتل الحيوانات حتى لا يعانوا من الألم.

وفي هذه الحالة، يكون الاهتمام الوحيد هو أن ينجو الشيء (أو الشخص) الذي هو موضوع الرفق من الألم وليس أن يصير أفضل أو أسوأ.

إن الكتاب المقدس يوضح أن النغول يدللون أما البنين الشرعيين المطلوب منهم التمسك بالتقاليد العائلية فهؤلاء يؤدبون. (عبرانيين١٢:٨). حينما لا نبالي بأشخاص معينون فإننا نطلب لهم السعادة تحت أي مسمى. أما فيما يخص أصدقائنا أحباؤنا وأولادنا فنحن نحتم بل نفضل أن نراهم يعانون عن أن نراهم يسعدون بأسلوب حياة حقير ومنفر.

إن كنا نعرف الله بكونه محبة فإنه بالتأكيد أكثر من مجرد ترفق، ويتضح لنا من كل ما دُوّن أن الله لم ينظر إلينا مطلقاً بعين الازدراء حتى عند انتهاره لنا وحكمه علينا.

لقد دفع إلينا من قبله عطية المحبة التي لا يمكن التسامح بشأنها. المحبة بكل ما تحتويه الكلمة من عمق، وأسى وصرامة.

إن علاقة الخالق بالمخلوق هي بالطبع واحدة من نوعها فلا يمكن مقارنتها بأية علاقة تجمع بين مخلوق وآخر.

الله هو في نفس الوقت الأبعد والأقرب لنا من أي وجود آخر. الفارق بين رئيس ملائكة وبين دودة يعتبر لاشيء إذا ما قورن بالفرق بين من يحوي أساس وجوده في داخله وبين من يعطي للوجود. لهذا فأن الله الأبعد ما يكون منا.

فهو يصنع، أما نحن فصنيعته. هو الأصل ونحن الفروع. ولكن في نفس الوقت ولنفس السبب نجد أن علاقة الله حتى بأحقر المخلوقات تعتبر ألصق من ألصق علاقة يمكن أن يصل إليها مخلوقٍ مع آخر. فنحن نستمد حياتنا منه في كل حين: فإن إرادتنا الحرة الصغيرة جداً تمارس قوتها المعجزية على أجساد تظل موجودة بفضل طاقة الله المستمرة، كذلك قدرتنا على التفكير هي بعينها قدرته التي ينقلها لنا.

هذه العلاقة الفريدة لا يمكن أن ندركها إلا إذا قمنا بقياسها طبقاً لأمثلة تشبيهية. فمن خلال مختلف أنواع الحب المعروفة بين المخلوقات يمكننا الوصول لتصور نافع ومفيد وإن كان غير واف عن محبة الله للإنسان.

إن النوع الأدنى من الحب إن توسعنا في معنى الكلمة هو ما يشعر به الفنان تجاه قطعته الفنية. وبهذا الأسلوب نجد علاقة الله بالإنسان مصورة لنا في رؤية أرميا كعلاقة الفخاري بالوعاء (ارميا١٨).

كذلك يكلمنا القديس بطرس عن الكنيسة بأكملها كبناء يقوم به الله وعن أعضاء الكنيسة الذين يمثلون حجارة البناء.

هناك حدود لهذا التشبيه، فنجد الشخص فيه يرمز له بشيء غير حساس، كذلك تطرأ تساؤلات بخصوص العدل والرحمة لأن الحجارة هي فعلاً حجارة حية، فيكون التمثيل باطل.

ولكن مع ذلك فذلك التشبيه مهم بأكمله. إننا بالحقيقة وليس بالتشبيه قطعة فنية يصنعها الله ولن يصبح الله راض عنها إلا حينما تكتسب طابع معين. وهنا أيضاً نصل لصدام مع أسميته العطية التي لا يمكن التسامح (أو التهاون) بشأنها.

إن الفنان لا يبذل مجهود كبير عندما يرسم لوحة سريعة هدفها تسلية طفل صغير، أي أنه يتركها دون تعديل وإن كانت لا تعني تماماً ما كان يبغيه.

ولكن حينما نتحدث عن أعظم لوحة رسمها في حياته، اللوحة التي يحبها بطريقة خاصة تشبه حب الرجل للمرأة أو حب الأم لطفلها، نرى أنه سوف لا يتوانى في بذل المجهود وكم بالحرى سوف يبذل من مجهود لا نهائي في اللوحة إن كانت ممتلئة بالإحساس وإذا تخيلنا هذه اللوحة التي تشعر وتحس وهي تُجلى وتُحك ويعاد رسمها للمرة العاشرة سوف نتمنى أن تكون مجرد رسم لأصبع الإبهام لا يتطلب تنفيذها أكثر من دقيقة واحدة. وهكذا من الطبيعي أن نتمنى أن يكون الله قد خطط لنا قدر أقل مجداً وأقل شقاءً ونحن بذلك لا نرنو لمحبة أكثر بل أقل.

وهناك نوع أخر من الحب ألا وهو حب الإنسان للحيوان. ونجد في الكتاب المقدس يستخدم علاقة الحب هذه ليرمز لعلاقة الله بالإنسان: "نحن شعبه وغنم مرعاه". ويعتبر هذا التمثيل أو التشبيه أفضل من السابق في عدة نواحٍ لأن الطرف الأدنى هنا يشعر ويحس، كذلك أصاب التشبيه في اختيار حتماً شيء أدنى (الحيوان).

ولكنه أسوأ لأن الإنسان لم يخلق الحيوان ولا يفهمه بالكامل. جدير بالاعتبار في علاقة الإنسان بالكلب مثلاً أنها في البداية من أجل مصلحة الإنسان: فهو لولا يروض الكلب لكي يستطيع أن يحبه ولكي يُخدم منه وليس لأجل أن يُحب منه ويخدمه.ولكن في نفس الوقت لا تتم التضحية تماماً بمصالح الكلب من أجل مصالح الإنسان.

فالغرض المراد الوصول إليه ألا وهو أن يحب الإنسان الكلب لا يمكن إتيانه إلا إذا أحب الكلب (بطريقته) الإنسان: كذلك لا يستطيع الكلب أن يخدم الإنسان إلا إذا خدمه هو بطريقته وإن كانت مختلفة.

إن الإنسان يتفاعل ويتدخل حتى يجعل الكلب يحب أكثر من الكلب البري في الطبيعة وذلك فقط لأنه بحسب مقاييس الإنسان أفضل المخلوقات اللاعقلية والأنسب لحبه والحب هنا يقصد به الحب بدرجته ونوعه الذي يتناسب مع هذا الحيوان وليس بالمعنى الغبي المبالغ الشبيه بحب الإنسان لأخيه الإنسان.

إن رائحة الكلب وعاداته في الطبيعة تحد وتقلل من محبة الإنسان له: لذلك فهو يقوم بغسله، ويدربه على العيش في المنزل، كذلك يعلمه ألا يسرق

وهكذا يقدر في النهاية أن يحبه بالتمام. وفي هذه الحالة، إذا تصورنا رد فعل جرو صغير حيال ذلك كلاهوتي، فإنه سوف تتجمع لديه شكوك خطيرة تجاه صلاح الإنسان.

أما الكلب الكامل النضج، المدرب تماماً، الأكبر حجماً، الأصح، والذي عاش مدة أطول من الزمن وتم إدخاله فضلاً (بالنعمة) إلى عالم ملئ بالود، بالإخلاص، بالاهتمام، وبالراحة بما يفوق قدرة الحيواني، فلن تتجمع لديه مثل هذه الشكوك.

والجدير بالذكر أن الإنسان (الصالح) يتحمل كل الآلام والمعاناة مع الكلب كما يعطيها له فقط لأن الكلب يعتبر حيوان راق ولأنه محبوب بدرجة تكفي لجعل الإنسان يعمل على أن يكون محبوب تماماً. فالإنسان لا يقوم بتدريب حشرة "أبو مقص" على العيش في المنزل ولا يعطي حمامات لحشرة الحريش (أم أربعة وأربعين). ولعلنا نتمنى بالفعل لو كنا لا نعني إلا القليل لله حتى يتركنا نتبع دوافعنا الطبيعية ويكف عن محاولة تدريبنا لكي نتغير عن ماهيتنا الطبيعية. ولكن مرة أخرى نحن لا نرنو بذلك لمحبة أكثر بل أقل.

لقد أعتمد السيد الرب في سياق تعليمه على تشبيه أنبل مما سبق، حينما شبه محبة الله للإنسان لمحبة الأب لابنه. ويجب أن نتذكر في كل مرة نستخدم هذا التشبيه وفي كل مرة نقول فيها الصلاة الربانية أن المخلص قد استخدمه في زمان ومكان كانت فيه السلطة البوية في مكانه أعلى مما هي عليه الآن في إنجلترا الحديثة.

إن الأب المسئول بمقدار النصف عن مجيء ابنه إلى هذا العالم، والذي يخشى منعه أو ضبطه حتى لا يثبط من إرادته، كذلك نخشى أن ينصحه ويرشده حتى لا يعوق استقلاله الذهني هو أبعد ما يكون عن الأبوة الإلهية.

ولست هنا بصدد أن أناقش إن كانت السلطة الأبوية بحسب مداها في القدم شيء حسن أو سئ ولكني فقط اشرح مفهوم الأبوة لدى أول أشخاص أصغوا إلى الرب ولدى الذين خلفوهم لمدة قرون عديدة.

وسوف يتضح الأمر أكثر إن تمعنا في كيفية نظر الرب يسوع (الواحد مع أبيه والأبدي معه كما لم يحدث لأي ابن وأب أرضيين، حسب إيماننا) لبنويته. فهو يسلم إرادته بالكامل لإرادة أبيه، كما أنه لا يسمح لنفسه أن يدعى صالح لأن لفظ صالح يطلق على الأب. إن الحب بين الأب والابن في هذا المثل يعني أساساً المحبة السيادية من ناحية والمحبة المطيعة من ناحية أخرى. فالأب يستخدم سلطته لكي يصنع من أبنه الإنسان بحسب ما تبغيه بالضبط حكمته العليا.

حتى في أيامنا هذه، فإن الرجل لا يعني شيئاً حينما يقول: إني أحب أبني وأريده أن يمضي وقت لطيف حتى وإن كان سافل وخليع. ومع ذلك فهناك كثير من الأباء يقولون ذلك وأخيراً نأتي لتشبيه أو تمثيل محفوف بالمحاذير، محدود في تطبيقه ولكنه مع ذلك يعتبر الأكثر فائدة والأكثر ملائمة لهدفنا الآن، أي تشبيه محبة الله للإنسان بمحبة الرجل للمرأة. ولقد استخدم بحرية في الكتاب المقدس.

إن إسرائيل تعتبر زوجة خائنة، ومع ذلك لا يستطيع زوجها الجليل أن ينسى الأيام السعيدة: قد تذكرت غيرة صباك، محبة خطبتك، ذهابك ورائي في البرية في أرض غير مزروعة. (أرميا٢:٢). إسرائيل تمثل العروس الفقيرة، للقيطة التي يجدها حبيبها متروكة في الطريق فيلبسها ويزينها لتصبح جميلة ولكن مع ذلك زنت عليه. (حزقيال١٦:٦-١٥).

"أيها الزناة والزواني" هكذا يدعونا القديس يعقوب لأننا نميل لمحبة العالم بينما الله بغيرة "يشتاق للروح الذي حل فينا" (يعقوب٤:٤-٥).

إن الكنيسة هي عروس الرب وهو يحبها جداً حتى إنه لا يحتمل أو يطيق أن يكون بها أي دنس أو أي غضن. (أفسس٥:٢٧). إن الحقيقة التي يبغى هذا التشبيه تأكيدها هي أن الحب بطبيعته يرغب في كمال المحبوب وأن الترفق (الرفق) الذي يتحمل ويسمح بأي شيء ما عدا الألم يعتبر بهذا المنظور نقيض الحب.

حينما نقع في حب امرأة. هل ذلك يجعلنا لا نهتم إن كانت نظيفة أم قذرة، حسناء أم كريهة؟

ألم يزد اهتمامنا عما كان عليه في البداية؟ وهل تعتبر أي امرأة عدم معرفة أو اهتمام الرجل بنظافتها أو جمالها علامة من علامات الحب؟

ربما تستمر المحبة في حب المحبوب حتى بعد أن يفقد جماله ولكن ليس بسبب أنه فقد جماله. قد تغفر المحبة كل الضعفات وتستمر رغماً عنها ولكنها لا تستطيع أن تتوقف عن الرغبة في إزالتها. فالمحبة أكثر حساسية تجاه عيوب المحبوب من الكراهية نفسها، إن مشاعرها مرهفه وحساسة مثل قرون الحلزون المتغضن الطرية.

إن المحبة هي الأقدر على الغفران ولكنها الأقل في التهاون تفرح بالقليل ولكنها تطلب كل شيء.

حينما تتحدث المسيحية عن حب الله للإنسان فإن ذلك لا يعني أن الله يهتم بالإنسان اهتمام خالي من المصلحة الشخصية وبالتالي غير مبال بل يعني ذلك إننا موضوع محبته، هذه هي الحقيقة الرهيبة والمدهشة.

إن كنت ترغب في إله محب، فلك ما تطلب.

الروح العظيم الذي دعوته باستخفاف، الإله الرهيب حاضر الآن. ليس هذا الإله شيخ محسن يتمنى لك وهو غافل السعادة التي تتمشى مع أسلوبك أو طريقتك.

ليس حبه فاتر كحب الحاكم المنصف للبشر ولا مثل اهتمام المضيف الذي يبالي براحة ضيوفه.

بل إن ذلك الإله هو بعينه النار الآكلة، حبه هو الذي صنع الأكوان. وهذا الحب مثابر كحب الفنان لعمله الفني، استبدادي كحب الإنسان لكلب، بعيد النظر وجليل بالاحترام كحب الأب لأبنه، غيور لا يتهاون وصارم كالحب فيما بين الجنسين.

لست أعلم كيف يمكن أن يكون ذلك! فمن الصعب على العقل أن يفسر السبب وراء مكانه المخلوقات الهائلة في عيني الله وكم بالحري مخلوقـــات مثلنا.

إن مما لا شك فيه إن هذا المجد العظيم يفوق اســـتحقاقنا. وإن اســـتثنينا أوقات النعمة القليلة فسنجد إنه يفوق ويتعدى ما نريده ونبغيه لأننا مثلنا في ذلك مثل العذارى في (الأساطير القديمة) نميل لرفض حب زيـــوس Zeus (إلـــه السماء ورئيس الآلهة في الأساطير الإغريقية).

ولكن الحقيقة المؤكدة هي أن الذي لا يتأثر ولا يشعر بالألم (الله) يتحـدث كما لو كان يعاني من العذاب وهو الذي يحتوي بداخله على سبب وجوده وكل الهناء والسعادة الأبدية يتكلم كما لو كان من الممكن أن يعـــوزه شـــيء أو أن يشتاق ويتوق.

هل افرايم ابن عزيز لدى أو ولد مسر. لأني كلما تكلمت به اذكره بعـــد ذكراً. من لجل ذلك حنت أحشائي إليه. (أرميا٣١: ٢٠).

كيف أتخلى عنك يا أفرايم؟ وكيف أسلمك إلى العدو يا إسرائيل؟

إن قلبي يتلوى أسىً في داخلي وتضرم في مراحمي. (هوشع١١: ٨)

"يا أورشليم، يا أورشليم. كم مرة أردت أن أجمـــع أولادك كمـــا تجمـــع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، فلم تريدوا" (متى٢٣: ٣٧).

لا نستطيع حل مشكلة موافقة ألم إنسان مع وجود إله محب فقط إذا أسندنا معنى تافه لكلمة الحب وإذا اعتبرنا الإنسان مركزاً لكل شيء. ففـــي الواقـــع الإنسان ليس هو المركز.

كذلك الله لا يوجد فقط من أجل الإنسان. الإنسان نفسه لا يوجد فقط مـــن أجل نفسه. "لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخلقت" (رؤيـــا يوحنا٤: ١١).

إن الهدف الأساسي لخلقنا ليس أن نحب الله (رغم أن ذلك أيضاً من أهداف وجودنا) بل أن يحبنا الله، وأن نصبح مكان راحة ومسرة لسكنى محبته.

ولهذا إذا طلبنا أن تقبلنا محبة الله كما نحن فنحن بذلك نطلب من الله أن يكف عن أن يكون إله: لأن الله هو الله (بكل صفاته) فمن الطبيعي أن تعرقل وتطرد بعض عيوب طبعنا محبته، ولأنه قد سبق وأحبنا بالفعل فعليه أن يعمل على جعلنا محبوبين.

فلا يمكننا حتى أن نتمنى أن يتصالح الله مع دنسنا الحالي تماماً كما لا تستطيع أن تتمنى المرأة المستعطية أن يقبلها الملك كوفتوا Cophetuo بخرقها وقذارتها.

أيضاً مثل الكلب الذي تعلم أن يحب الإنسان فلا يستطيع بعد ذلك أن يتمنى أن يتهاون في بيته مع الطبيعة الخاطفة الهدامة والملوثة التي لأعضاء السرب البري. وما ندعوه هنا سعادتنا ليس هو الهدف النهائي في وجهة نظر الله: ولكن حينما نتحول حتى يستطيع الله أن يحبنا بلا عائق فإننا في الواقع سوف نكون سعداء.

إنني أرى هنا بوضوح أن سياق برهاني سوف يلاقي اعتراضات فكما وعدت فلن يطلب منا قبول أشياء مناقضة تماماً لأخلاقياتنا في سياق فهمنا لصلاح الله. ولكن قد يعترض أحد ويقول إنه قد طلب الآن قبول نقيض، لأنني أنسب لله نوع من الحب نصفه نحن البشر بالأنانية وحب الامتلاك، يتناقض ولا يوافق نوع أخر من الحب، ذلك للذي يطلب أولاً سعادة المحبوب وليس شبع واكتفاء المحب. ولست واثقاً من شعوري حيال الحب الإنساني، فلا أظنني سوف أقدر محبة صديق يهتم فقط بسعادتي بحيث لا يعارضني حتى إن تحولت لشخص غير أمين. على أية حال فإني أرحب بذلك الاعتراض وسوف تسلط إجابتي ضوء جديد على هذا الموضوع إن كان قد تم النظر إليه من جهة واحدة فقط أثناء المناظرة.

في الحقيقة لا يمكن تطبيق التباين الموجود بين الحب الأناني والحب الإيثاري (يفضل الأخر على النفس) على حب الله لمخلوقاته دون أن يحدث التباس.

فنجد أن تصادم المصالح لا يحدث إلا بين كائنات تعيش في نفس العالم، حينئذ تكون للفرص متاحة للتصرف بأنانية أو بعدم أنانية. وهكذا لا يوجد أي مجال للمنافسة بين الله وأي من المخلوقات تماماً كما لا يوجد أي مجال للمنافسة بين شكسبير Shakespeare (أديب إنجليزي) والفيولا Viola (آلة موسيقية تشبه الكمان).

ولكن حينما يصبح الله إنسان ويعيش كمخلوق بين مخلوقاته في فلسطين فبالتأكيد حياته تمثل أسمى حالات بذل النفس إلى أن تنتهي بالجلجثة. ولقد قال فيلسوف حلولي حديث أن المطلق يتحول إلى سمكة عندما يسقط في البحر.

ونحن كمسيحيين نستطيع أن نشير إلى التجسد بنفس الأسلوب ونقول إننا نرى الله كلي الإيثار على النفس حينما يخلي ذاته ومجده ويتعرض للظروف التي تجعل للأنانية والإيثار معنىً واضحاً. ولكننا لا نستطيع أن نفكر في الله المتعالي المنزه بنفس الطريقة، حيث أنه الأساس المطلق لكل الظروف.

إننا نطلق على الحب البشري لقب الحب الأناني حينما يسعى لإشباع احتياجاته الشخصية على حساب احتياجات الطرف الأخر. وذلك ينجلي في أب يُبقي أولاده في المنزل لأنه لا يتحمل الاستغناء عن صحبتهم في حين أن من مصلحتهم أن يدعهم يخرجون للعالم.

يتضمن الوضع هنا في هذه الحالة عوز أو احتياج عاطفي من جهة المحب، يقابله احتياج مختلف من جهة المحبوب، كذلك عدم اكتراث وتجاهل المحب لاحتياجات المحبوب. ولا نجد في علاقة الله بالإنسان أي من الظروف السابقة، لأن الله ليس لديه أية احتياجات. وكما يعلمنا أفلاطون (فيلسوف إغريقي) فإن الحب وليد الفقر، الاحتياج أو النقص مصدره هو شيء صالح في المحبوب قد يكون حقيقي أو وهمي ولكن المحب يحتاج إليه ويبغيه.

أما حب الله فبعيد عن أن يكون مصدره صلاح المحبوب بل إنه هو داخله السبب في كل صلاح في داخله. فلقد احبه في البداية لذلك أوجده ونتيجة لذلك الحب أصبح الإنسان بالحقيقة جديراً بالحب.

إن الله هو الصلاح، لذلك يمكنه أن يعطي شيء صالح ولكن ليس من الممكن أن يحتاج إليه أو يحصل عليه. وفي هذا الإطار يكون التعريف المناسب لحب الله هو أنه بما لا يحد غير أناني (لا يفكر في ذاته) فإن لديه كل شيء ليعطيه ولا يحتاج لأن يأخذ أي شيء.

إن كان الله وهو لا يتأثر بالألم يتحدث كما لو كان يمكنه أن يعاني العذاب، وهو الشبع الأبدي يتحدث كما أنه في عوز واحتياج للكائنات التي أعطاها هو كل شيء بدءاً بالوجود وصاعداً، فإن كنا نستطيع أن نجد لذلك معنى مفهوم لنا، فإن ذلك يعني أن الله بطريقة معجزية جعل نفسه قادر على الجوع وخلق في نفسه شيء نستطيع نحن أن نشبعه ونكفيه. فإن كان يحتاجنا، فذلك الاحتياج هو بمحض اختياره.

إن كان القلب الذي لا يتغير والثابت يمكنه أن يحزن ويتكدر بسبب الدمي التي صنعها بنفسه فإن ذلك مصدره فقط القدرة اللامتناهية الإلهية وليس شيء أخر وذلك في تواضع يفوق الفهم. إن كان وجود العالم يدور حول حب الله لنا وليس حبنا له فإن نظرنا لتلك الحقيقة بمستوى أعمق فسنجد إنها في صالحنا. إن كان من لا ينقصه شيء في ذاته يختار أن يحتاجنا فإن ذلك لأننا نحتاج لأن يكون هناك من يحتاج إلينا.

كما نتعلم من المسيحية نجد أن قبل ووراء أي علاقة لله مع الإنسان هناك هوة لامتناهية مليئة بالعطاء الطاهر من قبل الله، ويظهر ذلك في اختيار الإنسان من اللاوجود لكي يصير حبيب الله أي من يحتاجه ومن يبغيه الله وهو بخلاف خطوة العطاء هذه لا يحتاج ولا يبغي شيء حيث إنه كان ولازال الإله الأبدي الكلي الصلاح. ويعد ذلك في صالحنا فحسن لنا أن نعرف الحب ولكن الأفضل لنا أن نعرف حب أعظم شخص ألا وهو الله.

ولكن إن نظرنا للأمر كأننا نحن الذين نتودد إلى الله، ونبحث عنه حتـــى نجده، بحيث يتوافق هو مع احتياجاتنا أولاً وليس العكس نكون قد عرفنا حبـــه بطريقة تختلف تماماً عن الطبيعة الحقيقية. لأننا مجرد مخلوقات أي أن وظيفتنا يجب دائماً أن تكون كالمريض للطبيب، كالمرأة للرجـــل، كـــالمرآة للضـــوء، كالصدى للصوت.

إن قمة نشاطنا ما هو إلا رد فعل وليس مبادرة.

إن لختبار محبة الله بصورتها الحقيقية لا الوهمية يحدث حينمـــا نستســـلم نحن لمطالبة ونتوافق مع رغباته فنختبر حب مختلف عن الذي طالما اختبرنـــاه الذي يشبه الخطأ النحوي للغة. ولكني بالطبع لا أستطيع أن أنكر أننـــا يمكننـــا التحدث في ظروف معينة وبطريقة صحيحة عن بحث النفس عـــن الله وعـــن استقبال الله لحب هذه النفس ولكن على المدى البعيد لا يمكن أن يصير بحـــث النفس هذا إلا مجرد صيغة أو مظهر (Erscheinung) لبحث الله عن النفـــس. وذلك لأن كل شيء يأتي من عنده أي أن إمكانية حبنا له تأتينا هبة من عنـــده كذلك حريتنا تنحصر في التفاعل معه بصورة أسوأ أو أفضل من حبه.

ولظن أن من أشد ما يفرق المسيحية عن الوثنيـــة مـــا ذكـــره أرســـطو (فيلسوف إغريقي) عن عقيدته وهي أن الله يحرك الكون دون أن يتحرك هـــو مثله في ذلك مثل المحبوب الذي يحرك المحب.

ولكن بالنسبة للإيمان المسيحي: "في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنـــا الله بل أنه هو أحبنا" (الرسالة الأولى ليوحنا٤: ١٠).

إذاً فالشرط الأول لوجود ما نسميه بالحب الأناني غير موجود لـــدى الله. فليس لديه أية لحتياجات، أو عواطف تتعارض مع رغبته في إسعاد المحبوب: وإن كان يوجد في داخل الله شيء نستطيع أن نشبهه بالعاطفة أو الاحتياج فـــإن ذلك موجود بمحض إرادته هو ولأجل مصلحتنا نحن.

كذلك الشرط الثاني أيضاً غير موجود.

إن الاهتمام الحقيقي للابن يمكنه أن يختلف عن ما يتطلبه الحب الغريـزي للأب، فالابن كائن منفصل عن أبيه بطبيعة لها احتياجاتها الخاصـــة وليســت موجودة فقط من اجل الأب، كذلك تلك الطبيعة لا تجد غاية اكتمالـــها فــي أن تصير محبوبة منه. والأب لا يفهم هذا تماماً.

أما المخلوقات فإنها ليست منفصلة عن الخالق وهو لا يخطئ فهمها. فإنه قد صممهم للمكان الذي يناسبهم في خطته. وهم حينما يصلـــون إليـــه، فـــإن طبيعتهم تكتمل ويدركون السعادة: أي أنه قد تم إصلاح عظمة مكســـورة فـــي العالم وانتهى العذاب.

حينما نريد شيء مختلف عن ما يريده لنا الله فإننا بالتالي نبغي في الواقـع ما لن يسعدنا.

قد تبدو الأوامر الإلهية لآذاننا البشرية كأنها من شخص مســـتبد لا مـــن شخص محب ولكنها في الواقع تقودنا إلى حيث ينبغي لنا أن نشاء الوصول إن كنا نعلم ما نريده.

فهو يطلب عبادتنا، طاعتنا وكذلك سجودنا. وهل نتصور أنها سوف تعود على الله بأي نفع أو هل يخشى الله أن يقلل عدم احترامنا له من مجـــده؟ كمـــا حدث في أدب ميلتون (شاعر إنجليزي١٦٧٤-١٦٠٨).

فكما لا يستطيع إنسان مجنون أن يخرج الشمس من حجرته بـــأن يكتـــب على حوائطها كلمة الظلام كذلك فأن الإنسان لا يستطيع أن ينقص من مجد الله برفضه عبادته.

إن إرادة الله لنا هي الخير (الأفضل) وخيرنا يكمن في أن نحبه (محبـــة المخلوق كرد فعل لمحبته). ولكي نحب الله يجب أن نعرفه وإن كنا نعرفه فإننا في الواقع سوف نسقط على وجوهنا. فإن لم يحدث ذلك فإنه يعنـــي إن مـــن نحاول أن نحبه ليس بعد الله وإن كان أقرب تصور يستطيع فكرنا وتخيلنـــا أن يصل إليه. ومع ذلك فإن الله لا يدعونا فقط للسجود له ولاحترامه ولكن يدعونا لأن نعكس الحياة الإلهية، يدعونا لأن نشارك كمخلوقات في الصفات الإلهيـــة

التي تبعد كل البعد عن رغباتنا الحالية. نحن مأمورون أن نلبس المسيح لكي نصير مثل الله. وسواء أحببنا هذا أم لا، الله ينوي أن يعطينا ما نحتاجه، لا ما نعتقد الآن أننا نريده.

مرة أخرى نجد أننا نزعج من عطية لا يمكن التهاون فيما يخصها. ننزعج من حب كثير وليس قليل.

ومع ذلك نجد ان حتى هذه الرؤية للموضوع تنقص قليلاً عن الحقيقة. فالموضوع لا يتلخص ببساطة في كون الله إختار أن يخلقنا بحيث يكون هو مصدر الخير الوحيد بالنسبة لنا. بل إن الله هو الوحيد الصالح (مصدر الخير) بين المخلوقات: وبالتالي كلٍ يجب عليه أن يجد من نعم الله الصلاح (أو الخير) الذي يتناسب في النوع والدرجة مع طبيعته الشخصية.

فالنوع والدرجة يمكن أن يتغيرا بحسب طبيعة المخلوق: ولكن يظل وجود مصدر أخر للخير غير الله مجرد حلم إلحادي.

إن جورج ماكدونالد Georges Macdonald في مقال لا أتذكر موقعه، يقدم لنا الله وكأنه يقول للإنسان: "يجب عليك أن تكون قوي بقوتي أنا، ومبارك ببركتي أنا فليس لدى شيء أخر أعطيه لك".

هذه هي النتيجة الأخيرة للموضوع ككل. فالله يعطي ما يملكه ولا يعطي ما لا يملكه: يعطي السعادة الموجودة وليس السعادة الغير موجودة.

إننا أمام ثلاثة اختيارات: أما أن نصير الله، أما أن نصير مثل الله ونشاركه صلاحه باستجابتنا له كمخلوقات وأما أن نصير تعساء.

إن لم نتعلم أن نقتات من الطعام الوحيد الذي ينبته الكون، الطعام الوحيد الذي يمكن لأي كونٍ محتمل أن ينبته فإننا سوف نجوع للأبد.

الفصل الرابع

شر الإنسان

"حينما تظن أنك متواضع بالقدر الكافي، فلا يوجد، برهان أعظم من ذلك على كبريائك الأكيد"

ويليام لو William Law (كاهن وكاتب بريطاني ١٦٨٨- ١٧٦١)

من كتاب: الدعوة الجادة لحياة تقية ومقدسة

A Serious call to a devout and holy life الباب: السادس عشر.

إن الأمثلة التي قدمت في الفصل الأخير أظهرت أن المحبة يمكنها أن تسبب الألم للمحبوب ولكن ذلك يحدث فقط في حالة احتياجه للتغيير حتى يستطيع بالفعل أن يكون جدير تماماً بالحب.

ولكن لماذا نحتاج، نحن البشر، لكل هذا التغيير أو التحويل؟

الإجابة المسيحية لهذا السؤال هي أننا استغلينا حرية الإرادة لكي نصير أشراراً. وهي إجابة معروفة ومشهورة تحتاج بالكاد لأن نسردها.

ولكن من الصعب جداً أن تتوافق تلك العقيدة مع الحياة الحقيقية في ذهن الإنسان الحديث أو حتى في ذهن المسيحي الحديث. فحينما كان الرسل يعظون الناس، كان لديهم تصور عن أن السامعين وإن كانوا وثنيين لديهم إدراك إنهم يستحقون الغضب الإلهي.

إن الأسرار الوثنية كان وجودها هدفه التحرر من هذا الإدراك والضمير. كما أن الفلسفة الأبيقورية (نسبة لأبيقور Epicurus ٣٤١- ٢٧٠ ق.م فيلسوف إغريقي يقوم مذهبه على إسعاد الذات للذة لا يعبها الألم) كانت تزعم إنها تستطيع أن تحرر الإنسان من الخوف من العقاب الأبدي.

في مقابل هذه الخلفية كان ظهور الإنجيل كبشارة مفرحة (خبر سار). لقد جاء بأنباء عن إمكانية شفاء الإنسان الذي يعلم أنه مريض بمرض مميت.

ولكن كل ذلك قد تغير. فإن على المسيحية الآن أن تعــــظ وتعلـــم بـــالمرض (تشخيصه) بكل ما يحمله من أخبار سيئة. قبل أن تحظى بأذان تســـتمع إلـــى كيفية العلاج.

ولدينا هنا سببان أساسيان. الأول هو أننا قد ركزنا لمدة تقترب من المائـــة عام على فضيلة واحدة من الفضائل ألا وهي الطيبة (الترفق) أو الرحمة. لـــهذا يشعر أغلبنا أن الطيبة (الترفق) هي بالحقيقة الشيء الصالح وأن القسوة هـــي في الحقيقة الشيء السيئ أو الشرير.

إن ذلك التطور الأخلاقي الانحيازي ليس بالشيء الجديد أو النادر. فـــإن عبر الأجيال الأخرى أيضاً كانت هناك فضائل مفضلة عن غيرها ولا مبـــالاة غريبة لفضائل أخرى.

وإن كان يجب زرع وتربية فضيلة على حساب الأخرى فلا يوجد اعظـــم من الرحمة. إن كل مسيحي عليه أن يرفض ويكره أي دعاية خفية للقسوة، تلك التي تحاول أن تبعد الرحمة عن العالم بإعطائها أسماء مثل: النزعة الإنســـانية أو النزعة العاطفية.

إن المشكلة الحقيقية تكمن في أن الطيبة أو الترفق صفة سهل جداً علـــى الإنسان أن ينسبها لنفسه بدون وجه حق وهذا في غاية الخطورة.

كل إنسان يشعر إنه شخصياً طيب إن لم يحدث شيء يزعجه في الوقـــت الحالي. ولهذا يسامح الإنسان نفسه بسهولة على كل عيوبه لأنه مقتنع أن "قلبـــه في المكان الصحيح" أو "أنه لا يقدر حتى على إيذاء ذبابة" في حين أنه لم يقـــم بأدنى تضحية من أجل مخلوق آخر. إننا نظن أننا مترفقون أو طيبـــون فقـــط حينما نكون سعداء ولكن ليس سهل على المرء أن يتصور نفسه عفيف، طاهر أو متواضع بنفس الطريقة.

أما السبب الثاني فهو تأثير التحليل النفسي على ذهن الناس العام وبصفـــة خاصة عقيدة الكبت والمنع. وبغض النظر عن المعنى الحقيقي لـــهذه العقيـــدة فغنها تركت تـــأثير فعلـــي علـــى البشـــر فجعلتـــهم يظنـــون أن الإحســـاس

بالخزى (shame) شيء خطير ومضر بالطبيعة أو بحسب التقاليد العامة لأغلب البشر ظل الإحساس بالتضاؤل أو الرغبة في الاختباء مرتبطان بعدم الشجاعة، عدم العفة، الزور والحسد. وقد بذلنا جهد كبير للتغلب عليهما.

يقال لنا أن نجاهي علانية بالأشياء التي بداخلنا وذلك ليس بغرض إذلال النفس ولكن على أساس أن هذه الأشياء طبيعية ولا يجب علينا أن نخجل منها.

ولكن إن لم تكن المسيحية مزيفة تماماً فإن نظرتنا لأنفسنا أثناء لحظات الشعور بالخزى هذه، هي الوحيدة الصادقة.

فحتى في المجتمع الوثني يعتبرون قلة الحياء (عدم الشعور بالذنب) هبوط بالنفس إلى الحضيض.

لقد قمنا أثناء محاولاتنا لاقتلاع الشعور بالذنب بكسر أحد الأسوار والحدود التي تحيط بالروح الإنسانية وانغمسنا في العمل بابتهاج وتهلل كما فعل الطرواديون حينما كسروا أسوار طروادة وأدخلوا الحصان بداخلها.

إنني لا أعلم إن كان هناك أي شيء يمكن عمله حيال ذلك إلا البدء في إعادة البناء في أقرب وقت ممكن.

إنه لمن الجنون أن ننزع النفاق عن طريق نزع الأغراء الذي يدفعني للنفاق: إن الصراحة (أو الشفافية) لأناس لا يشعروا بالخجل (عندما تكون أعمالهم مخجلة) إنما هي صراحة رخيصة لا قيمة لها.

إن استعادة ذلك الشعور القديم بالخطية لشيء أساسي بالنسبة للمسيحية، فالمسيح يعتبر بديهياً أن البشر فاسدين وحتى نشعر حقاً أن افتراض المسيح هذا هو صادق فنحن لا ننتمي لمجموعة الأشخاص الذين يوجه لهم كلامه وإن كنا جزء من العالم الذي جاء لفداءه.

فإننا نفتقر للشرط الأول الذي يجعلنا نستطيع فهم ما الذي يتحدث عنه المسيح.

حينما يحاول البشر يصيروا مسيحيين بدون ذلك الإحساس المبدئي بالخطية فإن غالباً ما تكون النتيجة منحصرة في إحساس بالغيظ تجاه الله الذي دائماً ما يطلب أشياء مستحيلة وأيضاً دائماً غاضب بدون سبب واضح.

إن معظمنا قد شعر في بعض الأحيان بتعاطف خفي مع المزارع الــذي يحتضر وهو يسأل القسيس بعد محاضرة طويلة عن التوبة ويقول له: "أي أذى صنعت به (الله)؟ هذا هو المحك الحقيقي!

إن أسوأ شيء صنعناه بالله هو أننا تركناه وحــده، فلمــاذا لا يــرد لنــا الصنيع؟

لماذا لا يعيش ويدع الآخرين يعيشون؟ لماذا بين كل الكائنــات، الله هــو الوحيد الغاضب؟ إنه لمن السهل بالنسبة له أن يكون صالح.

ولكن حينما تأتي الأوقات التي يشعر فيها الإنسان بالذنب الحقيقـــي. وإن كانت أوقات نادرة جداً. فإن كل هذا التجديف يزول ويذهب بعيداً. يمكننــــا أن نشعر أن كثير من سقطات البشر يمكن غفرانها أو التماس العذر لها: إلا هـذه. (سقطة ما قمنا بها) هذه الفعلة الرديئة والشديدة الشر، التي لا يمكن لأي مـــن أصدقائنا أن يفعلها، حتى ذلك المفرط في الملذات الفاسد كان ســوف يخجـل منها. تلك الفعلة التي لن نقبل أن تنتشر للعالم أجمع.

في تلك اللحظة نحن نعلم تماماً أن طبعنا كما يتراءى من خلال تلك الفعلة هو بالحقيقة لابد أن يكون مكروه لكل إنسان صالح ولأي قوة أعلى إن وجدت. إن إله لا ينظر لذلك الفعل باشمئزاز لا يخمد لا يمكن أن يكون كائن صـــالح، حتى إننا لا يمكننا أن نتمنى مثل ذلك الإله لأن ذلك يشبه أن نتمنى زوال كــل أنف من الكون أو أن نتمنى أن لا تعود رائحة الحشيش أو الورود أو البحــر تمتع أي كائن وذلك لأن نفسنا نحن له رائحة كريهة.

لا يكفي أن غضب الله وغيظه شيء بربري النزعة، بل حينما نــدرك أو نشعر بشرنا أو فسادنا فإن غضبه يظهر كنتيجة حتمية لصلاحه.

فلكي نفهم فهم حقيقي الإيمان المسيحي يجب علينا أن نضـــع نصــب أعيننا ذلك الإدراك النابع من تلك اللحظة التي وصفتها وكذلك يجب علينــا أن نتعلم كيف نرصد كل فساد حقيقي لا عذر له حتــى وإن أخــذ صــور تنكرية أكثر تعقيداً.

وهذا بالطبع ليس بتعليم جديد فلست أحاول كتابة شيئاً مدهشاً في هذا الباب. ولكني فقط أحاول أن أجعل قارئي (وبالحرى أنا) يأخذ أولى خطواته خارج فردوس المغفلين والأوهام للتامة.

ولكن الوهم قد نمى في العصر الحديث بقوة تجعلني أخذ في الحسبان بعض الاعتبارات تجعل الحقيقة أكثر تصديقاً.

١- إننا ننخدع حينما ننظر لظواهر الأمور. فنحن نعتبر أنفسنا في وضع تقريباً ليس أقل من "ص" من الناس حيث يعتبره الكل شخص من النوع المهذب وكذلك وإن لم نفرح بذلك بصوت مرتفع نظن أنفسنا بالطبع أفضل من "س" المقيت.

حتى على المستوى السطحي للأمور فإننا منخدعون بخصوص ذلك. فلا تكن متأكداً إلى هذه الدرجة أن أصدقائك يظنون أنك في مثل مرتبة "ص". فهناك ريب حتى في سبب اختيارك له للمقارنة: إنه ربما يقع في مرتبة مرتفعة بالنسبة لك ولدائرتك.

ولكن دعنا نفرض إن "ص" وكذلك أنت تظهران كشخصان ليسا سيئان. فإلى أي مدى يخدعنا مظهر "ص": فذلك بين "ص" والله. قد يكون مظهره ليس خادع لكنك تعلم أن مظهرك أنت شخصياً كذلك.

هل يبدو لك هذا الكلام مجرد حيلة، لأنني أستطيع أن أقوله لـ "ص" نفسه أو لأي شخص كل بحسب دوره؟

ولكن هذه هي الحقيقة!

أي إنسان ليس بدرجة عالية من القداسة وليس بدرجة عالية من الشر يعيش بحسب مظهر البشر الآخرين: فهو يعلم أن بداخله ما هو أسوأ حتى من أكثر سلوك مستهتر يقوم به وسط الناس وأسوأ من أكثر كلام فاجر يمكنه أن يقوله.

في لحظة ما ماذا يدور بذهنك حينما يتردد صديق لك في كلمة ما؟ لا أحد يقول الحقيقة كاملة!.

يمكننا أن نعترف بأقبح الحقائق، وبأشر مواقف النذالة، بالأشياء الأكثر دنائة وكذلك بالقذارة النثرية التي بداخلنا ولكن لهجة ونغمة صوتنا تظل مزيفة.

إن الاعتراف في حد ذاته، مع قدر متناهى من الميل إلى النفاق، كذلك مع قليل من الفكاهة يساهمون في فصل الحقيقة وتفريقها عن ذاتك ونفسك.

لا يستطيع أحد أن يتصور كيف أن هذه الأشياء (السيئة) مألوفة أو بعنى أخر متجانسة مع نفسك وكيف إنها تكون واحدة مع باقي ما بداخلك. فإنها في أعماقك، في دلخلك الدافئ والحالم، لا تشكل نغمة متنافرة مع باقي النغمات ولا تشذ أو تنفصل عن الجزء الباقي منك كما يحدث حينما يتم التعبير عنها بالكلمات.

نحن نذكر، وغالباً ما نصدق أن عيوبنا الاعتيادية هي مجرد أفعال منفردة إستثنائية، اما بالنسبة لفضائلنا فنحن نقع في الخطأ النقيض ومثلنا في ذلك مثل لاعب التنس السيئ. فحينما يكون أدائه هو المعتاد بالنسبة له يقول إن اليوم هو من أيامه السيئة وفي حالة فوزه النادر يزعم أن هذا هو مستواه المألوف.

إنني أظن أن عدم قدرتنا على التعبير عن أنفسنا لا يقع ذنبه علينا لأنه ببساطة لا يمكن أن نترجم إلى كلمات همس الضغينة المستمر طوال العمر في داخلنا، الشهوة الملحة، الطمع والاعتداد بالنفس. ولكن المهم هو أن نتأكد أن محدودية ألفاظنا لا تعطي سجل كامل بأسوأ الأشياء الموجودة داخلنا.

٢- يجري الآن رد فعل مضاد للمفهوم الخاص أو الشخصي المحض للأخلاقيات وإن كان رد الفعل هذا صحي في ذاته. فهناك ما يسمى بإفاقة الضمير الاجتماعي من جديد.

إننا نجد أنفسنا منغمسون في نظام اجتماعي جائر ومشتركون في ذنب مشترك. وهذا حقيقي جداً: ولكن العدو يمكنه أن يستغل حتى الحقائق ليخدعنا.

انتبه إن كنت تستغل فكرة الذنب المشترك حتى تلهي نفسك عن ذنوبك التي لا تناسب ذوق العصر في داخلك. فإنها لا تتعلق إطلاقاً بالنظام السائد ويمكنك التصرف حيالها دون انتظار مجيء الألفية الجديدة.

وذلك ربما لأن الإنسان لا يمكنه أن يشعر بالذنب المشترك بنفس قوه إحساسه بالذنب الشخصي إن ذلك بالتأكيد لا يحدث. إن هذه الطريقة للنظر للأمور هي بالنسبة لأغلبنا، كما هو الحال الآن، هي مجرد عذر نهرب به من المسألة الحقيقية.

إننا إن تعلمنا حقاً كيف نتعرف على فسادنا الفردي نستطيع عندئذ أن نفكر في الذنب المشترك وإن أمكن نفكر فيه كثيراً. أي لأنه يجب علينا أن نتعلم المشي قبل أن نركض.

٣- إن لدينا وهم غريب يجعلنا نظن أن مجرد الزمن يمحو الأثام. لقد استمعت لأخرين، كما لنفسي، يقصون بشائع وأكاذيب قاموا بها في صباهم كما لو لم تعد تخصهم بل كانوا أثناء سردها يضحكون.

ولكن الزمن وحده لا يصنع أي شيء لحقيقة أو للذنب المصاحب للخطيئة.

الزمن لا يغسل الذنوب بل التوبة ودم المسيح: أي لأننا إن تبنا عن خطايانا السابقة فيجب علينا أيضاً أن نتذكر ثمن الغفران الحادث لنا ونتضع.

هل من المحتمل أن يكون هناك ما يمحو حقيقة الخطية؟

إن كل الأزمان حاضرة أبدياً بالنسبة لله. أليس إذاً من الممكن له أن يراك إلى الأبد. في رياض الأطفال ولأنت تنزع أجنحة ذبابة، أو يراك إلى الأبد ولأنت تتملق وتتذلل أو تشتهي بجشع كتلميذ في المدرسة، إلا يمكنه أيضاً أن يراك إلى الأبد في لحظات الخسة والوقاحة وأنت موظف مبتدئ، يراك في خط واحد مستقيم في أبديته المتعددة الأبعاد؟

ربما لا يكون الخلاص في محو تلك اللحظات الأبدية ولكنه يتمثل في الإتضاع الكامل لأننا نحمل إلى الأبد الخزى، والتهلل لأن هذا الخزى، قد أظهر رحمة الله، ونفرح لأن ذلك سوف يعلم للعالم أجمع.

ربما في ذلك "الزمن الأبدي" يظل القديس بطرس إلى الأبد ينكر سيده (وليسامحني إن كنت مخطئاً).

وإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحقيقي أيضاً أن قلنا أن مباهج السماء تعتبر في ظروفنا الحاضرة وبالنسبة لأغلبنا شيء، نكتسب القدرة على تذوقه، بيد أن بعض أساليب الحياة تجعل من المستحيل اكتساب هذه القدرة على التذوق.

ربما يكون البشر المفقودين هم الذين لا يجرأون (بسبب خزيهم) على الذهاب لمثل ذلك المكان العام (السماء).

بالطبع لا أعلم إن كان ما أقوله صحيح ولكن من الجدير أن نضع في أذهاننا إمكانية أن يكون كذلك.

٤- يجب علينا أن نتوخى الحذر من الشعور بأن هناك ما يسمى بالأمان الناتج عن ضخامة العدد.

فمن الطبيعي أن نشعر إنه إن كان كل البشر بالشر الذي يذكره المسيحيين فلابد أن يكون من الممكن التماس العذر للشر. إن كان كل الأولاد يرسبون في الاختبارات أليس من المؤكد أن يكون الاختبار نفسه صعب بشدة؟ كذلك يظن أيضاً المعلمين في هذه المدرسة إلى أن يعرفوا نسبة الناجحين لنفس الاختبار في مدارس أخرى هي تسعون بالمائة فيبدأون في التساؤل إن الخطأ لم يكن خطأ وأصغى الامتحان!.

إن أغلبنا قد أختبر أن يعيش في جراب متفرع من المجتمع البشري كالمدرسة، أو الكلية، الفرقة العسكرية أو المجال المهني، حيث كان الطابع العام سيئ أو شرير.

وفي نطاق ذلك الجراب (المجتمع الفرعي) نجد أن هناك بعض السلوكيات اعتبرناها طبيعية لأن "الجميع يفعلون نفس الشيء" واعتبرنا بعض السلوكيات الأخرى غير عملية لأنها صالحة (عفيفة) أو شاذة ولكن حينما خرجنا من هذا المجتمع السيئ اكتشفنا لاكتشاف رهيب، وهو أن في العالم الخارجي لا يمكن لشخص مهذب أن يحلم حتى بفعل ما كنا نسميه سلوكيات طبيعية، كذلك السلوكيات التي كنا نسميها بالشاذة تعد أقل مقاييس اللياقة.

السلوكيات التي كانت تبدو لنا مرضية ووساوس وهمية ونحن في هذا المجتمع الصغير تحولت وصارت الأوقات الصحية الوحيدة التي تمتعنا بها.

من الحكمة إذاً أن نسلم بإمكانية كون الجنس البشري كله (كجزء صغير من الكون) جراب صغير للشر- مدرسة سيئة معزولة أو فرقة عسكرية حيث تعتبر فيها أقل لياقة عبارة عن فضيلة بطولية وأكثر مظاهر الفساد عبارة عن نواقص تغفر. ولكن هل هناك ما يثبت كل ذلك، عدا العقيدة المسيحية؟ اعتقد إنه يوجد إثباتات.

أولاً: يوجد فيما بيننا هؤلاء الأشخاص المختلفين الذين لا يقبلون بالمقاييس المحلية، وهم يبرهنون على هذه الحقيقة الخطيرة: أن من الممكن أن يكون هناك سلوك مختلف.

ثانياً: رغم بعد هؤلاء الأشخاص عن بعضهم عبر الزمن والمكان إلا إنه يوجد فيما بينهم اتفاق تام غريب على الأساسيات كما لو كانوا على اتصال بالرأي العام الأوسع خارج الجراب. هناك شيء جوهري مشترك بين زرازوسترا.

وأرميا (نبي عبري)، سقراط (فيلسوف إغريقي)، جوتاما (بوذا- فيلسوف هندي ٤٨٣-٥٦٣)، المسيح[1] (... ...) ومرقص أورليوس (لمبراطور روماني- وفيلسوف زواقي ١٢١-١٨٠).

ثالثاً: إننا نجد في داخلنا قبول نظري لهذا السلوك الذي لا يمارسه أحد. حتى في نطاق الجراب الذي نعيش فيه، نحن لا نقول أن العدل، الرحمة الثبات والعفة ليس لها قيمة بل أن العُرف المحلي عادل، مقدام، عفيف ورحيم بالقدر المعقول الذي يمكن قبوله.

يبدو هنا كأن القوانين المدرسية المهملة متصلة بعالم أكبر وأوسع حتى في هذه المدرسة السيئة التي ذكرناها. كما يبدو أننا سوف نجد أنفسنا نواجه

[1] إنني أذكر الله المتجسد ضمن البشر المعلمين حتى أبرز أن الاختلاف الرئيسي بينه وبينهم لا يكمن في التعليم الأخلاقي (وهذا ما يهمني هنا) بل في شخصه وخدمته أو عمله.

الرأي العام لذلك العالم الأكبر في نهاية الأيام. أما أهم شيء هو إننا لا نستطيع أن نغلق أعيننا عن هذه الحقيقة: أنه لا يوجد ما يمكن أن ينقذ جنسنا من كارثة حتى على هذا الكوكب إلا تلك الدرجة من الفضيلة التي نعتبرها غير عملية.

إن المقاييس التي تبدو آتية من خارج الجراب إلى الداخل أصبحت شديدة الأهمية لظروفه الداخلية لدرجة أنه ممارسة الجنس البشري المستمرة لهذه الفضائل حتى لمدة عشر سنوات فقط قد تملأ الأرض من القطب للقطب الأخر بالسلام، الرخاء، الصحة، الفرح والمودة. ليس هناك شيء آخر يمكنه أن يحدث نفس التأثر.

ربما جرت العادة في هذه الأرض السفلي على اعتبار القوانين العسكرية كرسائل عفا عليها الزمان أو كسر الكمال، ولكن حتى إن تكلمنا عن الزمن الحالي، فإن أي شخص يتوقف عن التفكير سوف يستطيع أن يرى كيف أن إهمال مثل هذه الفضائل سوف يكلف كل إنسان حياته عند ملاقاة العدو. وعندها سوف نحسد ذلك الإنسان الذي أسميناه "مريض" أو "متحذلق" أو "حماسي" والذي علم من حوله كيف يجتهدون ويحفرون إلى الأعماق ويحفظوا قوارير الماء.

٥- قد لا يكون المجتمع الأوسع الذي أقابله مع المجتمع البشري الأصغر (الجراب) موجوداً بالنسبة لبعض الناس فإننا لم نختبره في أي مستوى.

فنحن لا نقابل ملائكة، ولا نقابل أجناس غير ساقطة. بينما يمكننا أن نجد بعض إشارات عن الحقيقة حتى في داخل جنسنا نحن.

يمكننا اعتبار الأجيال والثقافات المختلفة مجتمعات صغيرة فرعية بعضها بالنسبة إلى بعض. ولقد ذكرت في صفحات ماضية أن هناك فضائل مختلفة برزت عبر لأجيال مختلفة.

فإن راودك التفكير أننا، اوروبيو الغرب المتمدينين لا نعتبر أشرار جداً لأننا آدميون (غير متوحشين) بالمقارنة مع آخرين أو بمعنى أخر فكرت أن الله

سوف يرضي عنا على هذا الأساس فاسأل نفسك إن كنت تظن أن الله يمكنه أن يرضي عن وحشية الأجيال المتوحشة لأنهم امتازوا بالشجاعة والتعفف. إنـــك سوف تدرك في الحال أن هذا شيء مستحيل.

وإن رأيت كيف تبدو لنا وحشية أجدادنا فسوف يكون لديك فكـــرة كيــف تبدو لهم ليونتنا، محبتنا للعالم ووجلنا وبالتالي كيف يبدو كل ذلك لله.

٦- قد يكون عزفي على كلمة الترفق (الطيبة) قد أنشأ بالفعل اعتراضات في أذهان بعض القراء. ألسنا بالحقيقة جيل متزايد الوحشية؟ ربما نكون كذلك. ولكنني أظن أننا أصبحنا كذلك نتيجة محاولاتنا لدمج كل الفضائل في فضيلـــة واحدة هي الترفق (الطيبة). إن إفلاطون كان محق حين علـــم أن الفضيلـــة لا تتجزأ. فإنك لا تستطيع أن تكون طيب (صالح) إن لم يكن لديك بقية الفضائل.

فإن كنت رغم خستك، غرورك وكسلك لم تتسبب بعد في أي ضـــرر لأي مخلوق فذلك سببه فقط أن خير وسعادة قريبك لم يتعارضا بعد مع إحساســـك بالأمان، قبولك لذاتك وراحتك.

إن كل الرذائل تؤدي إلى العنف أو الوحشية.

حتى العواطف النبيلة أو الشفقة إن لم يتم التحكم فيها عن طريق المحبـــة والعدل فإنها تتحول بالغضب إلى عنف. إن أغلب الأعمال الفظيعة مصدرهـــا أعمال العدو الشريرة، كذلك الشفقة على الفئات المطحونة إن تم فصلها عـــن القانون الخلاقي ككل فإنها تؤدي بطريقة طبيعية جداً إلى أعمال عنف متواليـــة لصالح مملكة الشر والإرهاب.

٧- لقد أعترض بعض اللاهوتين المعاصرين، وهم محقين في ذلك، على التفسير الأخلاقي للمسيحية المبالغ فيه.

فإن قداسة الله تفوق وتختلف عن الكمال الأخلاقي: حيث أن حقه علينـــا يفوق ويختلف عن حق الواجب الأخلاقي إنني لست أنكر الواجـــب الأخلاقـــي ولكن تلك الطريقة في فهم الأمور، مثلها مثل الذنب المشترك (أو العام) يمكـــن بسهولة جداً أن تستغل كهروب من المسألة الحقيقية.

إن الله يمكنه أن يكون أكثر من صلاح أخلاقي: ولكنه ليس أقل. فالطريق إلى أرض الميعاد يخترق سيناء. هكذا وجدت القوانين الأخلاقية حتى نسمو عنها. ولكن ذلك لن يحدث للذين لم يعترفوا بحق القوانين الأخلاقية عليهم ثم حاولوا بعد ذلك. بكل قوتهم أن يواكبوها ثم اعترفوا بحقيقة هزيمتهم بصدق وأمانة.

٨- "لا يقل أحدكم حينما يجرب أنه يجرب من قبل الله" (يعقوب١:١٣).

تشجعنا كثير من المدارس الفكرية على أن نرفع مسئولية سلوكنا من على أكتافنا ونحملها لاحتياجات طبيعتنا الإنسانية الفطرية وبالتالي وبطريقة غير مباشرة نحملها للخالق.

ومن الأشكال الإنسانية لهذه العقيدة هي عقيدة التطور أي أن ما نسميه شر الإنسان هو الإرث الإجباري من أجدادنا الحيوانات، أو عقيدة للمثالية أي أن شرنا هو مجرد نتيجة لمحدوديتنا.

والآن، إن كنت قد فهمت الرسائل البوليسية، فإن المسيحية تقر بالفعل أن الطاعة الكاملة للقانون الأخلاقي غير ممكنة حقيقيةً للبشر، حتى وإن كنا نجد هذا القانون مكتوب في قلوبنا وندرك أهميته ولو على المستوى البيولوجي.

وهنا تنشأ مسألة بخصوص مسئوليتنا، في حالة وجود أي علاقة بين الطاعة الكاملة وحياة معظمنا.

فإننا أنت وأنا قد فشلنا بالتأكيد في الوصول لدرجة معينة من الطاعة خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية. ولا يجب أن نستغل هذه المسألة الأخيرة أيضاً كوسيلة للهروب. فإن أغلبنا لا يدرك أهمية مسألة بولس كما لا يدرك مقولة ويليام لو William Low البسيطة: إن توقفت هنا وسألت نفسك لماذا لست في تقوى المسيحيين الأوائل، فإن قلبك سوف يجيبك أن السبب ليس للجهل وليس عدم القدرة بل فقط إنك لم تعزم على ذلك إلى التمام".

إن اعتبر هذا الباب إعادة لعقيدة الفساد التام إلى مركزها فإن ذلك سوف يكون قد أخطئ فهمه.

فإني لا أؤمن بهذه العقيدة، وذلك جزئياً لأن إن كان فسادنا تام، فمنطقياً لن نعلم إننا كذلك وأيضاً لأن التجربة تظهر كثير من صلاح الطبيعة البشرية.

ولست هنا أوصي بأن تسود العالم الكآبة. فإن قيمة الإحساس بالذنب ليست فيه كعاطفة أو انفعال بل في الإدراك الذي يقود إليه.

وأعتقد إن هذا الإدراك الداخلي يجب أن يكون دائم ولكن فيما يخص الإحساس بالألم الذي يصاحبه وإن كان يجب تشجيعه فإن ذلك يشكل مسألة اصطلاحية خاصة بالاتجاه الروحي ولي فيها كعلماني بعض الحق في التكلم.

فالنسبة لي فإن، ونتيجة لما يكلفه، فإن الحزن الذي لا ينشأ عن الندم والتوبة عن خطية ملموسة ومحددة ويدفع الإنسان بسرعة إلى إصلاح وتعويض ما فعل، أو الحزن الذي لا ينشأ عن الرثاء فيدفع الإنسان لكي يكون له رد فعل نشيط وإيجابي هو حزن شرير.

وأعتقد أننا جميعاً نخطئ حينما نخالف الوصية الرسولية ونفرح بالتوبة كما نفرح بكل شيء.

فبعد الصدمة الأولية (المحزنة) يصبح الانكسار أو الإتضاع فضيلة مبهجة: في الواقع إن الإنسان الغير مؤمن الكريم الأخلاقي الذي يحاول جاهداً رغم توالي خيبات الأمل أن يحتفظ بإيمانه في الطبيعة البشرية، هو حقاً الشخص البائس.

إن الهدف الذي كنت أصبو إليه هنا هو أن يحدث تأثير عقلي وليس عاطفي: كنت أحاول أن اجعل القارئ يصدق أننا الآن مخلوقات يسبب طابعها لله الفزع، في عدة نواح، وكذلك حينما نراه حقاً، يسبب الفزع لأنفسنا.

وهذا أؤمن أنه حقيقي: كما ألاحظ انه كما ازدادت قداسة الإنسان كلما زاد يقينه بهذه الحقيقة.

ربما تكون قد تصورت إن إتضاع القديسين هذا يعتبر وهم ناتج عن التقوى يبتسم الله حينما يراه. وهذا هو أخطر خطأ. إن ذلك يعتبر خطيراً جداً من الناحية النظرية لأنه يجعلك تصف الفضيلة (أي الكمال) بأنها وهم (أي

عدم الكمال) وهذا بالطبع عبث. وهذا عملياً يعتبر خطير جـــداً لأنـــه يشـــجع الإنسان على أن يظهر أن أول إدراك يحدث لفساده الشخصي يعتـــبر بمثابـــة بداية لهالة القديسين حول رأسه.

إن القديسين حينما يقولون أن الإنسان، بما في ذلك هم أنفسهم، دنئ فإنـــهم هنا يسجلون حقيقة علمية مؤكدة.

كيف وصل الحال لما هو عليه؟ سوف أعطي بقدر ما أستطيع أن أفـــهم الإجابة المسيحية لهذا السؤال.

الفصل الخامس

سقوط الإنسان

"إن الطاعة هي العمل المناسب للنفس العاقلة"

مونتاني Montaugne (كاتب فرنسي ١٥٣٣- ١٥٩٢)

تحتوي عقيدة السقوط على إجابة السؤال المطروح في الباب السابق. وطبقاً لهذه العقيدة فالإنسان يمثل شيء مفزع لله ولنفسه، كذلك يعتبر مخلوق غير قادر على التكيف بصورة صحية مع الكون. وذلك ليس من صنع الله ولكن لأن الإنسان أساء استغلال إرادته الحرة. في تصوري هذه هي الدلالة الوحيدة لتلك العقيدة. وهي موجودة للوقاية من نظريتين متفرعتين من المسيحية تخصان مصدر الشر: الأولى هي الواحدية Monism (مذهب يرد الكون كله إلى مبدأ واحد كالروح المحض أو المادة المحضة) وطبقاً لها فإن الله نفسه يفوق الخير والشر وهو الذي يعطي بكل توازن التأثيرات التي نطلق نحن عليها هذين الاسمين. أما الثانية فهي الثنائية Dua Pism وطبقاً لها فإن الله هو مصدر الخير بينما يوجد قوة مساوية ومستقلة هي مصدر الشر. وفي مقابل هاتين الرؤيتين فإن المسيحية تؤكد أن الله صالح، وإنه صنع كل الأشياء صالحة لمجرد أن تكون صالحة. كذلك تؤكد أنه من ضمن الأشياء الصالحة التي صنعها الله هو أنه أعطى إرادة حرة للمخلوقات العاقلة التي تحوي طبيعياً في داخلها إمكانية الشر. فاغتنمت هذه المخلوقات هذه الإمكانية وصارت شريرة. إن هذه الدلالة هي الوحيدة التي أقبلها بالنسبة لتلك العقيدة ويجب تمييزها عن دلالتين أخريين ربما يتم تقديمهما كأمثلة حادثة ولكني أرفضهما.

أولاً: إنني لا أظن أن هذه العقيدة تجيب على السؤال الآتي: "هل كان أفضل لله أن يخلق عن ألا يخلق؟" لقد قمت بالفعل بطرح هذا السؤال وتنحيته بعيداً. فبما أنني أؤمن أن الله صالح، فإنني واثق إن إجابة السؤال إن كان له معنى سوف تكون بالإيجاب. ولكني أشك إن كان هناك أي معنى لهذا السؤال: وإن كان كذلك فلا يمكن الوصول لإجابة بأسلوب تقدير القيمة التي يستطيع الإنسان يقوم به جيداً.

ثانياً: لست أظن إنه من الممكن استخدام عقيدة السقوط حتى نظهر إنه من العدل (العدل الذي يعاقب ويجازي) أن يتم معاقبة أفراد على أخطاء أجدادهم البعيدين.

فإن بعض صيغ هذه العقيدة يحتوي على ذلك المفهوم، ولكنني أتساءل إن كانت أي منها كما يشرحها المفسرين تعني بالفعل ذلك.

ففي بعض الأحيان يذكر الآباء أننا ننال عقاب خطية آدم، ولكنه يقولون أغلب الأحيان إننا أخطأنا في آدم.

قد يكون من المستحيل فهم ما كانوا يعنوه حينما قالوا ذلك، وقد نقرر أن ما كانوا يعنوه كان خطأً.

ولكني لا أظن إنه من الممكن أن نستبعد تماماً أسلوبهم في الحديث على الأقل فيما يخص الاصطلاحات التي استخدموها.

فلقد آمنوا، عن حكمة أو عن حماقة إننا كنا بالحقيقة مشتركين في سلوك آدم وذلك ليس تبعاً لقصة خيالية معترف بها.

إن محاولة وضع صيغة ما لهذا الاعتقاد بقول إننا كنا في آدم بالمعنى الجسدي، حيث إنه أول من حمل "بذرة الحياة غير المائتة" يعد شيء غير مقبول. ومع ذلك فإن هناك سؤال أبعد يطرح نفسه:

هل هذا الإيمان أو الاعتقاد مجرد فهم خطأ أم انه إدراك حقيقي لحقائق روحية تفوق قدرتنا العادية على الفهم؟

على كل حال، فإن هذا التساؤل لا يظهر الآن لأنني كما ذكرت لست أنوي أن أبرهن أن وصول الإنسان الحديث هبوطاً لتلك الحالة من العجز المكتسبة من أجداده البعيدين يمكن أن يعتبر نموذج للعدل العقابي (الذي يقيم الحد). إنها تشكل بالنسبة لي نموذج للأشياء اللازمة لخلق عالم مستقر كما رأينا في الباب الثاني.

لقد كان بدون شك من الممكن لله أن يزيل نتائج أول خطية أرتكبها إنسان وذلك بواسطة معجزة، ولكن لما صار ذلك حسناً إلا إذا كان الله مستعداً لأن

يزيل نتائج الخطية الثانية والثالثة وهكذا إلى الأبد. وعند توقف المعجزات، فإن مصيرنا كان يصبح عاجلاً أم آجلاً نفس المصير الحالي الذي يرثى له. أما في حالة عدم توقف تلك المعجزات، فإن هذا العالم الذي تدعمه وتصوبه باستمرار التدخلات الإلهية كان سوف يصبح عالم لا يعتمد أي شيء مهم فيه على اختيار الإنسان. إن الاختيار في حد ذاته كان سوف يتوقف وذلك لأن أحد البدائل الموضوعة أمامك للاختيار لن تؤدي لأي نتيجة وبالتالي لا تعد حقاً ضمن البدائل.

كما رأينا فيما قبل، فإن حرية لاعب الشطرنج تعتمد على صرامة المربعات والنقلات.

والآن وقد عزلت بالفعل ما أتصورها الدلالة الحقيقية لعقيدة الإنسان الساقط، دعونا الآن نفكر في العقيدة نفسها إن القصة الموجودة في سفر التكوين هي قصة تحتمل كثير من التفسيرات العميقة وتدور حول تفاحة المعرفة السحرية. ولكننا نرى أن سحر هذه التفاحة قد أختفي من المشهد في العقيدة المتطورة وأصبحت القصة ببساطة مثال لعدم الطاعة.

إنني أحترم بشدة الأساطير وأن كانت وثنية، وأحترم أكثر الأساطير الموجودة في الكتاب المقدس.

ولهذا لست أشك أن نقل للقصة الذي يبرز التفاحة السحرية ويوضح وجود شجرة الحياة مع شجرة المعرفة يحتوي على حقيقة أدق وأعمق من النقل الذي يجعل من التفاحة ببساطة مجرد ضمان وإثبات للطاعة. ولكنني لا أعتقد أن الروح القدس كان سوف يسمح بنمو ذلك النقل الأخير داخل الكنيسة وينال قبول الدكاترة العظام إن لم يكن هو أيضاً صحيح ومفيد في أبعد معاينة. ولأنني بصدد مناقشة ذلك النقل لأني وإن كنت أعتبر النقل الأول أكثر عمقاً إلا إنني أعلم أنني لا أستطيع الوصول إلى أعماقه.

ولهذا سوف أعطى قرائتي أفضل ما عندي وليس الأفضل على الإطلاق.

تذكر العقيدة المتطورة أن الإنسان كما صنعه الله كان صالح صلاح تام وسعيد سعادة تامة إلا إنه خالف أمر الله وأصبح ما نراه الآن. إن كثير من

الناس يعتقدون أن العلم الحديث يثبت خطأ هذه النظرية. فيقال: إننا الآن نعلم أن الإنسان نما تدريجياً من وحشيته وهمجيته وذلك يتناقض ويبعد عن كونه سقط وأنحدر من حالة طبيعية وفطرية من الفضيلة والسعادة.

يبدو إنه يوجد هنا لبس تام. إن كلمتي وحشي (أو بهيمي) وهمجي (أو بربري) تنتميان لنوع من الكلمات يستخدم بيانياً في بعض الأحيان كألفاظ تفيد التعيير والسب وتستخدم في أحيان أخرى كألفاظ تفيد الوصف العلمي.

ويعتمد العلم الكاذب في برهانه ضد نظرية السقوط على هذا اللبس في الاستخدامات اللفظية.

إن كنت تعني حينما تقول أن الإنسان تطور من البهيمية إنه جسدياً سليل الحيوان، فليس لدى أي اعتراضات. ولكن ذلك لا يعني إنك كلما ذهبت إلى الوراء في الزمن سوف تجد الإنسان أكثر وحشية أي بمعنى أخر أكثر شراً وأكثر تعاسة. فليس لدى الحيوان أي فضيلة أخلاقية، إلا إنه ليس من الحقيقي أن كل سلوكيات الحيوانات يمكننا أن نطلق عليها لقب سلوكيات شريرة إن أرتكبها الإنسان. بل على العكس فليس كل الحيوانات تعامل باقي المخلوقات من نفس النوع بالقسوة التي يعامل بها البشر بعضهم البعض.

ليست كل الحيوانات بنهامة وشهوانية الإنسان، كما لا يوجد حيوان طموح.

كذلك إن قلت أن الإنسان الأول كان همجي (بربري) وكنت تعني أن أعماله اليدوية كانت قليلة وخرقاء مثلها مثل أعمال الهمج المعاصرين اليدوية فقد تكون على صواب. ولكن إن كنت تعني بكلمة همجي أنه كان شهواني، متوحش، عنيف وغادر (أي خائن) فإنك بذلك تتخطى ما بحوزتك من أدلة، وذلك لسببين.

أولاً: لا يميل علماء الأجناس المعاصرين والمرسلين مثلهم مثل آبائهم إلى الموافقة على هذه الصورة الكريهة المعطاة حتى للهمج المعاصرين.

ثانياً: لا يمكنك، استناداً على أعمال الإنسان الأول اليدوية، البرهنة على إنه يشبه البشر المعاصرين الذين يقومون بنفس الأعمال اليدوية في جميع المجالات.

علينا توخي الحذر هنا من الفكرة الوهمية التي تسببها تلقائياً دراسة إنسان ما قبل التاريخ.

فلأن إنسان ما قبل التاريخ هو كذلك فإننا نعرفه فقط من خلال الأشياء المادية التي صنعها أو من خلال مجموعة مختارة بمحض الصدفة من أكثر الأشياء التي صنعها متانة ومقاومة. ولا يقع نقص الأدلة هنا على عاتق علماء الحفريات، ولكن ذلك النقص يشكل إغراء مستمر على استنتاج أكثر ما من حقنا أن تستنتجه ويجعلنا نفرض أن الجماعة التي قامت بأفضل الأعمال اليدوية هي الأفضل في كافة المجالات. إن أي إنسان يستطيع أن يرى كيف أن هذا الافتراض خاطئ، فقد يجعلنا نستنتج أن الفئات المرفهة التي تعيش في وقتنا الحاضر تتفوق في كل المجالات على فئات العصر الفيكتوري[1].

Victorian Age. من الواضح جداً إن من الممكن أن يكون إنسان ما قبل التاريخ الذي صنع أسوأ الأعمال الفخارية Pottery هو أفضل ما كتب الشعر Poetry ولن يمكننا أبداً أن نعرف ذلك. إن هذا الافتراض يصبح أكثر عبثاً حينما نقارن إنسان ما قبل التاريخ بالهمج المعاصرين. إن الأعمال اليدوية هنا بدائية بنفس الدرجة ولا تعبر بأية صورة عن ذكاء وفضيلة الذين صنعوها. فمهما كان طبع الشخص المبتدئ، فما يتعلمه بالمحاولة والخطأ يجب أن يعطي في أول الأمر شيء بدائي. إن نفس الوعاء الذي قد يعبر عن عبقرية صانعة إن كان أول وعاء يصنع في العالم، قد يبرهن على غباء صانعه إن أتى بعد ألفيات من صناعة الأوعية.

إن أساس كل هذا التقدير المعاصر للإنسان البدائي هو الشغف بأعماله اليدوية وأدواته ويعتبر هذا خطأ عظيم مشترك تقع فيه حضارتنا.

إننا لا نتذكر أن أجداد ما قبل التاريخ لهم الفضل في أهم وأكثر الاكتشافات فائدة فيما عدا اكتشاف الكلوروفورم. إن الفضل يرجع لهم في اللغة، الأسرة، الثياب، استخدام النار، استئناس الحيوان، العجلة، السفينة، الخزف والزراعة.

---

[1] عصر الملكة فيكتوريا ١٨٣٧: حدثت فيه نهضة سياسية، فنية، موسيقية، أدبية...

وهكذا لا يستطيع العلم أن يقول ما ينفي أو ما يؤكد عقيدة السقوط.

وقد طرح لاهوتي معاصر[٢] مسألة فلسفية أكثر صعوبة وله يدين كل دارسي هذا الموضوع.

ويوضح هذا الكاتب أن فكرة الخطيئة تتنبأ بوجود قانون ما ترتكب الخطيئة ضده. وحيث أن تبلور الغريزة العامة المشتركة إلى عرف والعرف إلى قانون قد يحتاج لقرون فإن الإنسان الأول، إن كان هناك كائن يمكن نصفه بهذا الوصف، لا يمكن أن يكون هو مرتكب أول خطيئة. يفترض هذا الجدل أن الفضيلة والغريزة العامة المشتركة يتطابقان وأن الخطيئة الأولى كانت في الأساس خطيئة اجتماعية. ولكن العقيدة التقليدية تشير إلى خطيئة حدثت ضد الله، وليس ضد القريب أي خطوة عدم طاعة. وبالطبع إن كنا نبغي المحافظة على المعنى الحقيقي لعقيدة السقوط فعلينا أن ننظر للخطيئة العظمى بنظرة عميقة ولا زمنية تختلف عن الأخلاقيات الاجتماعية.

لقد وصف القديس أغسطينوس الخطية كنتيجة للكبرياء وكنتيجة لخطوة يحاول المخلوق من خلالها أن يعتمد على نفسه ويوجد لأجل ذاته وهو في الأساس كائن غير مستقل، يعتمد لساس وجوده على آخر[٣].

هذا النوع من الخطية لا يحتاج لظروف اجتماعية معقدة، ولا لخبرة طويلة ولا لتطور عقلي عظيم فمن اللحظة التي يصير فيها المخلوق مدركاً لله كإله ولنفسه كذات تتفتح أمامه تلك الفرصة الرهيبة للاختيار فيما بين الله ونفسه كمركز للوجود.

يومياً ترتكب هذه الخطية، بواسطة طفل صغير أو فلاح جاهل ترتكب بواسطة الأشخاص المتكلفين، كذلك المتوحدين فإنهم لا يرتكبون هذه الخطية أقل من الذين يعيشون في المجتمعات. تلك هي السقطة في حياة كل فرد، وفي كل يوم من حياة كل فرد وهي الخطية الأساسية خلف كل خطية أخرى، حيث

---

[٢] ن.ب.ويليامز N.P.Willams من كتاب: "أفكار السقوط والخطيئة الأولى" ص٥١٦.

[٣] المدينة الفاضلة "City of God".

إننا أنت وأنا في هذه اللحظة بعينها نقوم بإرتكباها، أو على وشك القيام بـها أو نتوب عنها.

إننا نحاول أن نضع يومنا عند قدمي الله حينما نستيقظ من النـوم ولكـن اليوم يتحول ملك لنا قبل حتى أن ننتهي من الحلاقة ونشعر كأن نصيب الله منه ما هو إلا جزية أو هدية نقدمها من جيبنا الخاص، أو جزء من وقـت تظنـه بالكامل ملكنا الشخصي.

إن الإنسان حينما يبدأ عمل جديد، يكون لديه شعور بأن هذه هي دعوتـه، وربما يواظب خلال الأسبوع الأول على تتميم هذه الدعوة كهدف له وهو لذلك يتقبل الأفراح والآلام من يدي الله حينما تكون نادرة. ولكنه يبدأ خلال الأسبوع الثاني في معرفة الخفي والظاهر من تفاصيل العمـل وهكـذا عندمـا يصـل للأسبوع الثالث يكون قد أستخلص خطته الشخصية من هذا العمل. وهو حينما يستطيع تنفيذ هذه الخطة يشعر إنه لا يحصل إلا على حقوقه وحينما لا يستطيع يشعر أن هناك من يعرقل خطواته.

إن المحب، الذي يطيع باعث داخلي غير محسوب، يحتضن من يحبـها وهو في ذلك مفعم بالنية الصالحة كما بالرغبة وأيضاً هو لا ينسـى الله أثنـاء ذلك. وبكل براءة فإنه يشعر حينما يفعل ذلك برجفة المتعة الجنسية، فتصـير هذه المتعة في مقدمة المشهد حينما يحتضن محبوبته للمـرة الثانيـة وتصبـح كهدف أول خطوة إلى أسفل إلى الحالة التي ينظر فيها الإنسان للمخلوق الأخر كمجرد شيء، أو كآلة تمتعه. وهكذا في كل حركة نقوم بـها تنـتزع زهـرة البراءة، وجزئية الطاعة والاستعداد لقبول كل ما يجئ في حياتنا. إن الأفكـار التي نقوم بها من أجل الله نفسه، مثل التي نحن بصددها الآن، نستمر فيها كمـا لو كانت هي بعينها الهدف، ثم يتحول تمتعنا بالتفكير ليكون هو الهدف الأخير، وفي النهاية يصبح كبرياءنا وشهرتنا كما لو كانا هما الهدف. وهكـذا خـلال اليوم بطوله، وخلال كل أيام حياتنا ننحدر، ننزلق ونسقط بعيداً عن الله لنصـل لإدراكنا الحالي بأنفسنا. إنه منحدر لا يمكننا التوقف فيه.

إن طبيعتنا الحالية تجعلنا بالفعل ننحدر، وتعتبر الخطية مغتفرة وبسيطة لأنه لا يمكن تجنبها. ولكن لا يمكن أن يكون الله قد خلقنا بهذه الصورة. فلابد أن نفكر أن رحلة العودة للذات الطبيعية والدوران بعيداً عن الله لابد أن يكونا من نتائج السقوط.

نحن لا نعرف ما حدث بدقة حينما سقط الإنسان، ولكنه من الشرعي أن نحاول تصور ذلك، وأنا هنا أعطي الصورة التالية: قصة أسطورية[4] بالمعنى السقراطي، قصة يمكن أن تكون قد حدثت وغير بعيدة الوقوع.

عبر قرون طويلة، أتقن الله صنع الحيوان، الذي كان سوف يصير فيما بعد حاملاً للصفات الإنسانية على صورة الله نفسه. لقد أعطاه اليدين، فيهما يستطيع الإبهام أن يلاقي ويلمس كل إصبع. كذلك أعطاه الفكين، الأسنان والحلق، بهم يستطيع النطق، وأعطاه أيضاً عقل معقد بما يكفي للقيام بالحركات المادية التي يتجسد من خلالها التفكير العقلي.

قد يكون قد مكث هذا المخلوق في هذه الحالة لعصور طويلة قبل أن يتحول ويصبح إنسان ومن الممكن أيضاً أن يكون بالذكاء الذي يجعله يصنع أدوات قد يعتبرها عالم الحفريات الحديث أدلة على إنسانيته. ولكنه كان مجرد حيوان لأن كل عملياته الجسدية والنفسية كانت موجهة لأهداف مادية وغريزية فقط.

وفي ملئ الزمان أختار الله أن يُنزل على هذا الكائن في نفسيته وفي وظائف أعضاؤه نوع جديد من الوعي، يجعله قادر على أن يقول: أنا. ذلك الوعي الذي يجعله ينظر لنفسه ككيان، ويعرف الله، ويقيم الحق والجمال والخير، كما يجعله يفوق الزمن بكثير بحيث يدرك أنه يمضي.

لقد ساد هذا الوعي الجديد الكائن وأناره، غمر كل جزء فيه بالنور ولم يكن مثلنا محدود في مجموعة من الحركات التي تحدث في جزء واحد في الجسم ألا وهو المخ.

---

[4] سرد لما قد يكون قد حدث تاريخياً. والمعنى المقصود هنا ليس معنى الأسطورة بالنسبة لد.نايبور Dr.Niebuhr تمثيل رمزي لحقيقة غير تاريخية.

لقد كان وقت ذلك الإنسان واعياً وعي كامل. إن ممارس اليوجا المعاصر يزعم بالصواب أو بالباطل أنه يستطيع التحكم في الوظائف مثل الهضم والدورة الدموية التي تعتبر بالنسبة لنا كجزء من العالم الخارجي.

لقد ازدهرت وسمت تلك القدرة لدى الإنسان الأول، وكانت وظائفه الطبيعية تطيع ناموس إرادته الشخصية وليس ناموس الطبيعة. كانت أعضاؤه ترسل شهواتها للإرادة الجالسة على كرسي الحكم وذلك ليس جبراً بل لأن ذلك كان اختيار الإنسان.

لم يكن النوم يعني له السبات الذي يحدث لنا، بل كانت راحة يريدها بإرادته ووعيه، فكان يظل مستيقظاً حتى يتمتع بالنوم كواجب عليه فعله.

وبما أن عمليتا انحلال وتعويض الأنسجة كانت تحت وعيه وطاعته، فإنه ليس من الخيال أن نفترض أن طول حياة الإنسان طوع تصرفه.

ولأنه كان سائداً لنفسه تماماً فلقد ساد أيضاً كل ما قابله من صور الحياة الأدنى.

فإننا نقابل حتى الآن ندرة من الأفراد الذين يملكون قدرة سرية وغريبة على ترويض الوحوش. إن هذه القدرة نمت وازدهرت تماماً لدى إنسان الفردوس. وبالتالي قد تكون صورة الدواب القديمة وهي تتمشى أمام آدم وتتملقه ليست كلها رمزية. ويمكن أن يحدث ذلك في وقتنا هذا أكثر مما يمكن أن نتصور فهناك حيوانات كثيرة يمكنها أن تقبل أن تعبد الإنسان إن أعطيت لها الفرصة المناسبة.

فالإنسان قد خلق ليكون كاهن وربما مسيح الحيوانات، الوسيط الذي من خلاله تستطيع أن تدرك البهاء الإلهي بقدر ما تسمح به طبيعتها اللاعقلية.

وهنا لم يشكل الله بالنسبة للإنسان ذلك السطح الزلق والمائل. لقد صنع هذا الوعي الجديد (الضمير) حتى يرتاح في خالقه وبالفعل حدث ذلك.

فرغم غنى وتنوع اختبار الإنسان لرفقائه من البشر (أو رفيقه) من خلال المحبة والصداقة والحب الجنسي وكذلك تعرفه بالوحوش والعالم المحيط به

كعالم جميل ورحيم فإن الله كان مع ذلك له المكانة الأولى في حبــــه وتفكــير وذلك بدون أي مجهودات مؤلمة.

كانت عطايا الله النازلة للإنسان من قوة وفرح، مع ما يرد الإنسان لله في صورة محبة مطيعة وعبادة مليئة بالسرور يكونون معاً حركة دائرية مستمرة.

ومن خلال هذا المفهوم، وليس كل المفاهيم، كان حقاً الإنســـان ابنـــاً لله، نموذج للمسيح، يمارس تسليم النفس التام لأبيه وكل قدراته وحواسة في فـــرح ورلحة، ذلك التسليم الذي أظهره ربنا من خلال آلامات الصلب.

ولهذا إن تم تقدير هذا المخلوق المبارك من خلال أعماله اليدويـــة أو حتى من خلال لغته فإنه سوف يكون بالطبع همجي (أو بربـــري). فكـــان عليه أن يتعلم كل ما يمكن أن تعلمه له التجربة والمحاولة، وهكذا إن قـــام ببري حجر ما فبدون شك لن يكون حاذق بما يكفي. قد يكون عاجزاً تماماً عن التعبير عن تجربته في الفردوس بشكل مفهوم. فكل ذلك لا يلائـــم ولا يتناسب مع ما أختبره.

ونتذكر من طفولتنا أنه كانت لدينا اختبارات روحية في سن كان الكبـــار فيها يظنون إننا غير قادرين على الاستيعاب، وكانت هذه الاختبارات الروحيـــة في صدق وأهمية أية اختبارات أخرى عشناها بعد ذلك ولكنها لم تكن بـــالطبع لها نفس غنى التأثير في سياق حياتنا.

إن المسيحية نفسها تعلمنا أن هناك مستوى معين، يعتبر الأهم على المدى البعيد، فيه لا يتفوق المتعلم أو الراشد على الجاهل أو الطفل.

وإن كان الإنسان الذي عاش في الفردوس يمكنه أن يظـــهر الآن بيننـــا فلست أشك أننا سوف نعتبره همجي بالكامل أي مخلوق يحب استثماره أو فـــي أفضل الظروف رعاية وحمايته. واحد أو اثنان، الأقدس بيننا، ســـوف يلقـــون بنظرة أخرى على ذلك المخلوق العريان، الملتحي، بطئ الكلام ثم بعـــد عـــدة دقائق سوف يقعون عند أرجله.

إننا لسنا نعلم عدد المخلوقات التي صنعها الله، ولسنا نعلم أيضاً مدة بقائهم على هذه الحالة الفردوسية. ولكنهم سقطوا.

يوجد شخص ما أو شئ ما همس لهم وقال أنه يمكنهم أن يصيرا مثل الآلهة وأن بإمكانهم أن يتوقفوا عن توجيه حياتهم في اتجاه الخالق واعتبار كل مسراتهم كمراحم إضافية، كأحداث عارضة (بالمعنى المنطقي) حدثت في سياق حياتهم المتجهة صوب عبادة الله وليس صوب هذه المسرات بعينها.

ومثل ولد صغير يطلب مصروف دوري من والده، يستطيع أن يعتمد عليه كشيء ملكه ومن خلاله يستطيع أن يضع خطته الشخصية وذلك حقه لأن أبيه أولاً وأخيراً مخلوق مثله.

هكذا أراد البشر الأوائل أيضاً أن يصيروا بمفردهم، وأن يصيروا المسئولين عن مستقبلهم، أن يقوم بالتخطيط للمتع ولوسائل الأمان. لقد اختاروا أن يكون لهم شيء ملكهم° يستقطعون منه بلا شك جزء معقول كهدية أو جزية لله تظهر في صورة وقت واهتمام وحب ولكنه ملكية خاصة لهم وليس لله.

وكما نقول أحياناً، فقد أرادوا أن تصبح أنفسهم ملك لهم. ولكن هذا يعني أن يعيش الإنسان كذبة لأنه في الحقيقة أنفسنا ليست ملكاً لنا.

لقد كانوا يريدون ركناً في الكون يستطيعون منه أن يقولوا لله: ذلك هو شغلنا وليس شغلك أنت. إلا انه لا يوجد مثل هذا الركن في الكون.

أرادوا أن يصيروا أسماء بينما كانوا صفات أو نعوت ويجب أن يمكثوا هكذا للأبد.

وليس لدينا فكرة بواسطة أي فعل أو سلسلة من الأفعال تم التعبير عن هذه الرغبة المستحيلة والمتناقضة في نفسها. فكل ما أستطيع أن أراه أن من الممكن أن يكون هو حرفياً تناول ثمرة ما. ولكن ليس هناك أي أهمية لهذه المسألة. إن هذا الفعل الذي أرتكبه المخلوق بإرادته الشخصية، والذي يمثل تزيف تام لوضعه كمخلوق هو الخطية الوحيدة التي يمكن أن تمثل السقوط.

إن ما يشكل صعوبة بالنسبة للخطية الأولى هو أنها يجب أن تكون شائنة وفظيعة جداً وإلا لما كانت لها تلك العواقب الرهيبة. كذلك يجب أن يكون من

° إستخدم الكاتب هنا كلمة لاتينية هي Meum وهي تعني ما هو ملكي أي mein بالإنجليزية و Le mien بالفرنسية.

الممكن لإنسان لا تؤثر فيه التجارب (الإغراءات) التي تؤثر في الإنسان الساقط أن يرتكبها عن عمد. وهكذا خطية ترك الله لصالح النفس تحقق الشرطين. وهي ممكنة حتى بالنسبة لإنسان الفردوس. حيث أن مجرد وجود ذات نطلق عليها بالفعل لفظ أنا، فذلك يتضمن من البداية احتمالية وخطورة الولع بالذات.

وبما أن أنا هو أنا فيجب على أن أقوم بفعل يعبر عن استسلام الذات والعيش لله وليس للنفس وإن كان ذلك الفعل صغيراً وبسيطاً.

وهنا، إن جاز التعبير، تظهر نقطة الضعف في الخليقة، ويبدو أن الله وجد أن تلك المخاطرة تستحق المجازفة.

ولكن الخطية كانت في غاية الشناعة، لأن الذات التي كان يجب على إنسان الفردوس إخضاعها لم تكن تحتوي على طبيعة معاندة ومقاومة لذلك الإخضاع. وإن جاز التعبير فإن معطيات هذا الإنسان تمثلت في جسد يخضع نفسياً ومادياً للإرادة، وإرادة معدة دون إجبار للرجوع لله.

لم يشكل إخضاع الذات الذي مارسه الإنسان قبل السقوط أي صراع ولكنه كان بمثابة التغلب الممتع واللذيذ على قدر ضئيل جداً من التمسك والتحالف مع الذات وعندها يشعر بالنشوة، ونرى هنا تشابه بسيط مع إخضاع الذات المذهل والمتبادل الذي يحدث بين الأحباء حتى في وقتنا الحاضر.

وهكذا لم يكن أمامه الإغراء أو التجربة (بالمعنى الذي نقصده) الذي يجعله يختار نفسه، ولم يكن في داخله عاطفة أو ميل يجعلانه يتجه بقوة نحو ذلك الاختيار، لم يكن هناك سوى حقيقة كون الذات هي ذاته هو.

لقد كانت النفس الإنسانية حتى هذه اللحظة تتحكم تحكم كامل في الجسد الإنساني. ومما لاشك فيه أنها كانت تظن إنها سوف تحتفظ بذلك التحكم وإن توقفت عن طاعة الله. إن سلطتها على الجسد كانت سلطة موفدة من الله، فقدتها لم تعد تابعة له. ولأنها استقطعت نفسها بعيداً بقدر ما تستطيع عن مصدر وجودها فقد فعلت كذلك أيضاً بمصدر قوتها. لأننا عندما نتكلم عن المخلوقات ونقول أن أ يحكم ب فإن ذلك بالطبع يعني أن الله يحكم ب من خلال أ إنني أرتاب إن كان من الممكن لطبيعة الله الأصلية أن تستمر في حكم الجسد من

خلال النفس الإنسانية في حين إنها متمردة عليه. على أية حال فهو لم يفعل ذلك. لقد بدأ في حكم الجسد بطريقة خارجية بواسطة قوانين الطبيعة وليس القوانين الروحية[٦].

وهكذا بخروج الأعضاء من تحت حكم إرادة الإنسان أصبحت تحت سيطرة القوانين الكيموحيوية العادية وما تحمله بين طياتها من تفاعلات تحدث فيما بينها وتظهر في صورة الألم، الشيخوخة والموت. ثم بدأت بعد ذلك الرغبات تطرأ على ذهن الإنسان كما تستدعى ذلك الحقائق الكيموحيوية والبيئية وليس بحسب اختياره العقلي.

ولقد وقع الذهن نفسه تحت سيطرة قوانين الربط والتفضيل النفسية، تلك التي كان الله قد أعدها لحكم مجريات النفس لدى القردة العليا. لقد أمسك تيار الطبيعة الشبيه بالمد والجذر بالإرادة وأصبحت بذلك لا تملك إلا أن تدفع بعض هذه الأفكار والرغبات الجديدة بالقوة الذاتية وتحولت هذه الثورات الداخلية المتوترة إلى اللاوعي أو العقل الباطن كما نعرفه الآن.

أتصور أن تلك العملية لم تكن شبيهة بالفساد الذي يحدث الآن للفرد بل هو ضياع لمنزلة الإنسان كنوع من الأنواع.

إن ما فقده الإنسان بالسقوط هو طبيعته الأصلية الخاصة. "لأنك تراب وإلى التراب تعود".

إن الكائن بأكمله الذي تم رفع منزلته إلى أعلى من خلال حياته الروحية، قد سُمح له بالسقوط والرجوع للوراء إلى الصورة الطبيعية التي أقيم منها عند صنعه، وهذا مثل ما حدث في الماضي البعيد في قصة الخلق، لقد أقام الله الحياة النباتية حتى تصبح محرك للحياة الحيوانية، أقام العمليات الكيميائية حتى تصبح محرك للحياة النباتية، أقام العملية الكيميائية لتصبح محرك للحياة النباتية، أقام العمليات الطبيعية (الفيزيائية) لتصير محرك للكيمياء.

---

[٦] إن هذا يشكل تطور لمفهوم هوكر Hooker عن القانون. إن خالفت قانونك الشخصي (القانون الذي يصنعه الله لكائن مثلك) فإنك تجد نفسك تطيع قانون أدنى من قوانين الله: فمثلاً إن أهملت قوانين الحيطة والحذر وأنت تسير على أرض زلقة فستجد نفسك فجأة تطيع قانون الجاذبية الأرضية.

وهكذا بعد أن كانت الروح الإنسانية هي السيد على الطبيعة الإنسانية تحولت لمجرد ضيف موجود في بيته، أو بالحرى سجين وأصبح الإدراك أو الوعي العقلي كما هو الحال الآن مجرد ضوء متقلب يركز على جزء ضئيل جداً من النشاط العصبي (المخي).

ولكن فساد الروح في حد ذاتها كان أكثر شراً من حقيقة انحصار قدراتها. لقد تحولت عن الله وصارت وثناً لنفسها، ومع أنها باتت تستطيع الرجوع لله[٧] إلا أن يمكنها ذلك فقط من خلال مجهود مؤلم، لأن ميلها أصبح في اتجاهها الشخصي.

الكبرياء، الطموح، الرغبة في أن أكون جميل في عيني نفسي وفي إحباط وإذلال كل المنافسين، الحسد، البحث المستمر عن المزيد والمزيد، الرغبة في الإحساس بالأمان كل هذه أصبحت أسهل السلوكيات التي تساور الروح الإنسانية.

لم تعد مجرد ملك ضعيف لا يستطيع التحكم في طبيعته الشخصية بل أيضاً ملك شرير، فأصبحت ترسل للكيان النفسي والجسدي رغبات في الاتجاه المتناقض تفوق شراً الرغبات التي يرسلها الكائن في داخل الروح في الاتجاه الصاعد.

لقد انتقلت هذه الحالة لكل الأجيال التالية بالوراثة، لأنها لم تكن فقط ما يطلق عليه علماء الأحياء صفات مكتسبة نتيجة تحول ما، بل كان ظهور لصنف جديد من البشر. نوع جديد لم يخلق أبداً بواسطة الله بل أوجد نفسه بواسطة خطيئته.

إن التغير الذي حدث للإنسان لم يكن يوازي نمو لعضو جديد أو عادة جديدة بل كان بمثابة تبدل جذري في تكوينه، عبارة عن اضطراب في العلاقة فيما بين مكوناته الجزئية، كذلك انحراف والتواء داخلي لأحد هذه المكونات.

لقد كان بوسع الله أن يوقف تلك العملية بواسطة معجزة ما. ولكن وإن كان تلك الاستعارة قليلة الوقار إلا أن ذلك كان سوف يكون بمثابة إبعاد ومحو

---

[٧] سوف يلاحظ اللاهوتيين هنا إنني لا أبغي أن أساهم في التضاد الأوقيانوسي-الأغسطيني. بل أعني أن تلك العودة لله حتى في وقتنا الحاضر ليست من المستحيلات. ولست أتطرق لمصدر المبادرة أو الابتداء في أي لحظة من لحظات ذلك الرجوع.

للإشكالية التي بدأها الله حينما خلق العالم، الإشكالية التي تتمثل في تعبير الله عن صلاحه من خلال القصة الدرامية للعالم بأكمله الذي يحتوي على كائنات حرة بالرغم من تمردهم عليه بل بواسطة ذلك التمرد.

إن رمز القصة الدرامية أو السيمفونية أو الرقصة يشكل أهمية لأنه يساهم في تصويب بعض العبث الذي قد ينشأ نتيجة كثرة تحدثنا عن الله الذي يخطط ويخلق العالم في سياق صلاحه ولكن إرادة المخلوقات الحرة أفسدت مشاعر ذلك الصلاح. وقد ينشئ ذلك أيضاً تلك الفكرة السخيفة: أن الله فوجئ بسقوط الإنسان الذي أزعج خطته أو قد ينشئ فكرة أشد سخافة وهي أن الله خطط لكل شيء تبعاً لظروف وشروط لا يمكن تحقيقها وقد كان يعلم بذلك.

في الواقع وبالتأكيد رأي الله الصليب وهو يخلق أول سديم. إن العالم يشبه رقصة فيها ينحدر الخير من عند الله ولكن الشر الصاعد من البشر يزعج هذا للخير أو الصلاح وبالتالي ينتج تضارب يحله الله باستيعابه لآلام ومعاناة الطبيعة التي يتسبب فيها هذا الشر.

إن عقيدة السقوط الحر تؤكد أن الشر وهو يشكل الوقود والمادة الخام للنوع الثاني والأكثر تعقيداً من الصلاح ليس آتياً من طرف الله بل من طرف الإنسان.

وإن كنا نصر على طرح هذا السؤال فإن ما ذكرته لا يعني أن الله لم يكن باستطاعته إيجاد سيمفونية شاملة بنفس للبهاء إن كان الإنسان قد بقى بريئاً وطاهراً.

ولكن يجب علينا دائماً أن نتذكر أننا حينما نتحدث عن ما كان يمكن أن يحدث، أو عن الأمور الطارئة التي كان من الممكن أن تحدث خارج واقعتنا هذا بأكمله فإننا لا ندري ما الذي نتحدث عنه فلا يوجد زمان ولا مكان خارج هذا الكون الموجود يمكن لكل هذا أن يحدث فيه أو كان من الممكن لكل هذا أن يحدث فيه. وإنني أعتقد أن أكثر طريقة مجدية للتعبير عن حرية الإنسان الحقيقية هي القول إنه إن كان هناك أنواع عاقلة أخرى من البشر في أي مكان في الكون الحالي فليس من الضروري أن نظن أنها أيضاً سقطت.

يمكننا تفسير حالتنا الحالية بأننا واقعياً نمثل أعضاء في نوع فسد ولست أعني أن معاناتنا ما هي الإعقاب. لكوننا ما لا بد لنا فيه، ولا اعني أننا

مسئولون أخلاقياً عن تمرد أجدادنا البعيدين. ولكني مع هذا أطلق على حالتنا الحاضرة، حالة ناتجة عن الخطية الأصلية وليست مجرد حالة ناتجة عن النكبة الأصلية وذلك لأن تجربتنا الدينية الحالية لا تسمح لنا بالنظر للأمور بطريقة أخرى. ولعلي أظن أننا نظرياً نقول: "نعم، إننا نسلك كوغش. (قوارص أو حيوانات ضارة). والسبب في ذلك هو كوننا بالفعل وغش وهذا ليس خطأنا بكل المقاييس".

ولكن ما يدعى الخجل والإحساس بالذنب والحزن هو ليس حقيقة كوننا وغش بل إحساسنا إن ذلك عذر لما نقترفه وهو يفوق أكثر بكثير الأسى الذي تستدعيه الأفعال التي ننقاد لارتكابها بسببه.

إن الوضع ليس صعب الفهم كما يستنبط بعض الناس. فإن ذلك تحدث وسط البشر حينما يتقابل صبي أسيئت تربيته للغاية مع عائلة مهذبة.

فإنهم يكونون على حق حينما يذكرون أنفسهم أن الخطأ ليس خطأ الصبي في كونه مشاغب، خسيس، واش وكذاب.

ولكن مع ذلك يظل طبعه مكروه. ليس أنهم فقط يكرهونه بل أن عليهم ذلك. فإنهم لا يستطيعون أن يحبونه بسبب ما هو عليه، بل عليهم فقط أن يحاولوا تبديله لما هو ليس عليه. ومع أن الصبي سيئ الحظ لأن تربيته تمت بهذه الطريقة إلا إنك لا تستطيع في نفس الوقت أن تقول عن طبعه انه نكبة (أو سوء حظ) كما لو كانت نفسه شيء وطبعه شيء أخر.

إنه هو بنفسه الذي يشاغب، ويدحلب وهو الذي يحب القيام بذلك. وحينما يبدأ في إصلاح ذلك سوف يشعر بالتأكيد بالخجل والذنب تجاه الحال الذي هو بصدد تركه.

بهذا أكون قد قلت كل ما يمكن أن يقال فيما بين الحدود التي تجعلني قادر على مناقشة موضوع السقوط.

بيد أنني للمرة الثانية أحذر قرائي من ضحالة هذا المستوى من التفسير. حيث أننا لم نذكر أي شيء عن شجرة الحياة وشجرة المعرفة وهي تخبئن بالتأكيد أسرار عظيمة. كذلك لم نقل شيء عن قول الرسول بولس: "لأنه كما

في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع" (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس١٥:٢٢). إن هذا النص وراء العقيدة الأبلتية التي تقول أننا موجودون في صلب آدم كذلك وراء عقيدة أنسلم Anselm (لاهوتي وفيلسوف، قائد كنسي إيطالي الأصل ١٠٣٣- ١١٠٩) باشتراكنا في آلام المسيح بحسب القصص الكتابي. Legal Ficlion.

وقد تكون هذه النظريات قد قدمت نفعاً حينما ظهرت في وقتها ولكنها لا تقدم لي أنا أي نفع ولست بصدد تأليف نظريات أخرى. لقد أخبرنا العلماء حديثاً بأنه ليس من حقنا أن نتصور أنه يمكن تصوير ووصف حقيقة الكون وإننا حينما نحاول أن نكون صور ذهنية عن الطبيعة الكمية فإننا نبتعد بذلك عن الحقيقة ولا نقترب منها[^] فكم بالحرى حقنا يقل في أن نطلب أن تكون الحقائق الروحية قابلة للتصوير أو حتى للتفسير من خلال أفكارنا المبهمة.

إني أرى أن صعوبة نظرية الرسول بولس تكمن في كلمة "في" وفي كون هذه الكلمة يتكرر استخدامها مرات عديدة في العهد الجديد للتعبير عن معاني لا نستطيع استيعابها بالكامل.

إن كان يمكننا أن نموت في آدم وأن نحيا في المسيح فإن ذلك يدل على أن الإنسان في الحقيقة يختلف كثيراً عن الإنسان الذي تمثله أنماط أفكارنا وتصوراتنا المنحصرة في الثلاثة أبعاد. كذلك يدل على أن الانفصالية الموجودة فيما بين الأفراد تعادلها في الحقيقة المطلقة علاقات بينية جامدة لا نستطيع أن ندركها. فقد تكون معاناة آدم والمسيح كأشخاص يمثلون نموذج أصلي ومثالي للفرد هي معاناتنا نحن أيضاً، وذلك ليس قصص كتابي ولا استعارة ولا نتيجة سببية بل ذلك أعمق بكثير من كل ذلك. والأمر هنا لا يشابه البتة الاعتقاد الحلولي بأن الأفراد تذوب في نوع من التسلسل أو الاتصال الروحي لأن ذلك خارج مضمون وفحوى إيماننا. ولكن ربما هنا ليس بين الفردية ومبادئ أخرى مختلفة، فإننا نؤمن أن الروح القدس يمكنه حقاً أن يوجد وأن يعمل في الروح الإنسانية ولكننا على عكس الحلوليين لا نقصد بذلك أننا نشكل أجزاء، أو تحورات أو بعض مظاهر الله.

[^] عن كتاب للسيد جيمس جونز "الكون الغامض" الباب الخامس. Sir James Jeans.

وكما قبلنا التحريك عن بعد فيما يخص مفهومنا عن المادة، فإن علينا أن نتصور على المدى البعيد أن هناك شيء من نفس النوع ولكن بدرجة مختلفة يمكن اعتباره حقيقي وهو أنه حتى بالنسبة للأرواح المخلوقة فإن كل روح وإن كانت منفصلة إلا إنها موجودة في الكل أو في بعض آخرين مثلها.

لقد لاحظ أغلبنا كيف يبدو للعهد القديم أنه يتجاهل مفهومنا عن الفرد. فعندما يعد الله يعقوب ويقول له: "أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضاً" (تكوين٤٦:٤) فإن تتميم هذا الوعد يكوم أما بدفن جسد يعقوب في فلسطين أما بخروج نسل يعقوب من مصر.

وهكذا من الصحيح أن نربط بين هذا المفهوم وبين التركيب الاجتماعي للجماعات في العصور القديمة حيث كان دائماً الفرد يهمل على حساب القبيلة أو العائلة وإن كنا نريد التعبير عن هذا الربط فهناك اقتراحان يتساويان في الأهمية:

أولاً: هو أن تجربة القدماء الاجتماعية قد حجبت عنهم بعض الحقائق التي ندركها نحن.

ثانياً: أنه كانت لديهم بسببها حساسية لبعض الحقائق التي لا نراها نحن.

إن أشياء مثل القصص الكتابية الرمزية، دعوة الله واختياره لأشخاص، انتقال أو نسب الاستحقاق أو الذنب، لم تكن لتلعب الدور الذي لعبته في اللاهوت إن كان ينظر لها بنظرتنا نحن الصناعية.

لقد ظننت أنه من الصواب أن يسمح لنا بلمحة واحدة نحو ما يشكل بالنسبة لي ستار لا يمكن اختراقه، ولكن ذلك لا يمثل جزءاً من برهاني. فمن الواضح إن محاولة حل مشكلة عن طريق إيجاد مشكلة أخرى لعديم النفع.

إن محصلة هذا الباب ببساطة هي أن الإنسان كنوع أفسد نفسه، وأن في حالاتنا الحالية يعتبر الصلاح هو قبل كل شيء صلاح علاجي وتصحيحي.

ما الدور الذي يلعبه واقعياً الألم في ذلك العلاج والتصحيح. هذا ما نحن بصدد مناقشته الآن.

الفصل السادس

الألم الإنساني - ١

بما أن حياة المسيح مؤلمة جداً لطبيعة الإنسان وللذات وللأنا (لأن في حياة المسيح، الذات والأنا والطبيعة البشرية لابد أن يفقدوا ويموتوا) لذلك ففي داخل كل منا خوف وفزع من هذه الحياة وما تمثله.

لاهوت ألماني ثيولوجيكا جيرمانيكا

Theologica Germanica ج١ الباب العشرين

– لقد حاولت في باب سابق أن أوضح أن إمكانية الألم لازمة لوجود عالم يمكن أن تلتقي فيه النفوس. وعندما تصير النفوس شريرة فإنه من المؤكد أنها سوف تستغل تلك الإمكانية لإيذاء بعضها البعض وربما يمثل ذلك أربعة أخماس من معاناة البشر.

إن الإنسان وليس الله هو الذي أبدع آلات التعذيب، السياط، السجون، الرق، الأسلحة، الحراب والقنابل.

كذلك فإن الفقر والعمل المضني هو نتيجة لبخل الإنسان وغباؤه وليس بسبب حماقة الطبيعة.

ومع ذلك يبقى قدر من المعاناة لا يمكن أن ننسبه لأنفسنا. وحتى وإن كانت كل الآلام من صنع الإنسان، فإننا نريد أن نعرف لماذا سمح الله بهذا القدر العظيم لأبشع البشر[1] بتعذيب الآخرين. وإن قلنا كما ذكرنا في الباب السابق أن الصلاح لكائنات مثلنا يعني صلاح علاجي وتصحيحي فإن الإجابة

[1] ربما من الأفضل أن نقول هنا المخلوقات. إنني لا أحاول هنا بأية طريقة أن أنبذ نظرية أن "السبب الموجد" للمرض أو لبعض الأمراض يمكن أن يكون كائن مخلوق يختلف عن الإنسان (نجد ذلك في الباب التاسع). أننا نجد في الكتاب المقدس أن الشيطان له علاقة خاصة بالمرض في سفر أيوب، لوقا١٣: ١٦، ١كو٥: ٥، وربما في ١تي١: ٢٠.

إنه لمن الغير مهم في هذه المرحلة من البرهان إن كانت كل الإرادات المخلوقة التي لها القدرة على تعذيب المخلوقات الأخرى بشرية أم لا.

تكون غير كاملة. فليست كل الأدوية رديئة الطعم، وإن كانت كذلك فإنه من الأدعى أن نعرف سبب هذه الحقيقة المؤلمة.

وقبل أن أستكمل فعلي أن أعود لنقطة طرحتها في الباب الثاني. لقد قلت أن الألم لا يكون مرفوض وربما محبوب حينما تقل شدته عن مستوى معين. ربما أردت أن ترد على ذلك وتقول أن في هذه الحالة فإننا لا يجب علينا أن نسميه ألم، ولعلك في ذلك محقاً، ولكن الحقيقة هي أن كلمة ألم تحتمل معنيين يجب توضيحهما.

أ- نوع معين من الشعور ربما تنقله ألياف عصبية متخصصة يميزه الإنسان سواء كان يعجب أم لا. (فمثلاً الألم الذي ينتابني في قدمي، يعتبر ألم وإن كنت لا أعترض عليه).

ب- تجربة ما جسدية كانت أو نفسية يمقتها الذي يمر بها. ويجدر القول أن كل الآلام من الفئة أ تتحول لآلام من الفئة ب إذا فاقت مستوى منخفض جداً ولكن ليس من الضروري أن يكون الألم من الفئة ب هو نفس الألم من الفئة أ.

إن الألم بالمعنى الموجود في ب يعتبر مرادف للمعاناة، العذاب، البلية، الشدة والهم وهنا تكمن مشكلة الألم.

وسوف استخدم هذا المعنى حتى نهاية الكتاب بكل ما يحوي من أنواع المعاناة، أي أن المعنى الموجود في أ لا يعنينا في شيء.

إن خضوع المخلوق لخالقه هو هنا الصلاح بمعناه المناسب حينما يستجيب المخلوق بعقله، إرادته وعواطفه لتلك العلاقة التي تفرضها حقيقة كونه مخلوق فإنه عندها يصير صالح وسعيد.

وحتى لا نظن أن هناك نوعاً من الظلم هنا، فإن هذا النوع من الصلاح يبدأ في مستوى بعيد أعلى بكثير من مستوى المخلوقات فأن الله نفسه المتمثل في أقنوم الابن يرد منذ الأزل يرد لله الآب كينونته بطاعته البنوية له. كما أن الله الآب يولد أبدياً تلك الكينونة في الابن بحبه الأبوي له.

إن هذا هو النموذج الذي خلق الإنسان كي يحاكيه، ولقــــد فعــل كذلــك الإنسان الذي عاش في الجنة. إن أي مكان نرد تماماً إرادتنا الممنوحــــة مــن الخالق إليه ونحن نطيعه بابتهاج يمكن أن يكون بدون شك الجنة والمكان الـذي يعمل فيه الروح القدس.

إن المشكلة في عالمنا كما نعرف هي كيفية استعادة خضوع النفس. فإننــا لسنا فقط مخلوقات غير كاملة يجب عليها أن تتحسن بل إننا كما يقول نيومــان Newman متمردين يجب علينا أن نسلم أسلحتنا.

حينما نتساءل لماذا يجب أن يكون شفاؤنا مؤلم فإن الإجابة الأولى علــى هذا السؤال هي أن تسليم الإرادة التي زعمنا لفترات طويلة إنها ملكنا تشكل في حد ذاتها ألم مفجع بغض النظر عن المكان أو الكيفية التي تحدث بــــها. لقــد ذكرت أن في الجنة هناك قدر ضئيل جداً من الالتصاق بالنفس علينا التغلــــب عليه، ولكن حتى هناك فإن هذا التغلب والخضوع يعد أمر مذهل وفائق.

ولكن حينما يذعن الإنسان إرادة ذاتية مشتعلة ومنتفخــــة بســنوات مــن اغتصاب لسلطة ليست سلطتها فإن ذلك يكون بمثابة موت له.

كلنا نتذكر هذه الإرادة الذاتية كما كانت فــي الطفولــة، نتذكــر نوبــات الغضب المرة والممتدة عند أي اعتراض، كذلك انفجار الدموع الحارة، نتذكــر أيضاً الرغبة الشيطانية السوداء في القتل أو الموت بدلاً من الاستسلام ولـــهذا فإن النموذج القديم من المربين أو الآباء كانوا على حق حينما كانوا يفكـــرون أن أول خطوة في التربية هي كسر إرادة الطفل" ولقد كانت طريقتهم في أغلب الأحيان خاطئة إلا إننا إن لم نرى أهمية ذلك فإني أعتقد سيكون بمثابة الابتعاد عن فهم القوانين الروحية.

وإن كنا الآن بعد أن تقدم بنا العمر لا نولول ولا نضرب الأرض بأرجلنا بشدة فإن ذلك يرجع لأن من يكبرونا سناً قد بدأوا عملية كسر وقتــل إرادتنــا الذاتية أثناء وجودنا في رياض الأطفال وأيضاً لأن نفس هذه الأحاسيس تتخــذ أشكالاً أكثر خبثاً وأصبحت من الذكاء ما يجعلها تتجنب هذا الموت عن طريـق بعض التعويضات.

ومن هنا ننشأ أهمية للموت اليومي، فطالما ظننّا أننا قد كسرنا الذات المتمردة ولكن مع ذلك نجدها مازالت حية.

وتاريخ كلمة الإماتة أو قمع الشهوات ويشهد لنا كيف لا يمكن أن تتم هذه العملية بدون ألم.

لكن الألم أو الموت للداخلي المتمثل في قمع الذات أو النفس المغتصبة ليس هو القضية بأكملها.

ورغم أن الإماتة هي الألم نفسه إلا إنها تصبح أسهل بوجود الألم في أثناءها ومضمونها، ويحدث ذلك حسب اعتقادي بثلاثة طرق أساسية.

*** الأولى:**

إن الروح الإنسانية لن تبدأ حتى في محاولة إخضاع الإرادة الذاتية طالما كل شيء يبدو أنه على ما يرام.

إن الخطأ والخطيئة يشتركان في صفة واحدة وهي أنه كلما زادا عمقاً قلماً ميزت بوجودهما الضحية فإنه شر مقنع. ولكن الألم ليس له قناع، وهو شر لا تخطيء تمييزه، فكل إنسان يشعر أن هنا خطأ ما حينما يعاني الجراح.

والمازورشية ليست استثناءً لهذا، إنها مع السادية تقومان بعزل موقف أو جانب طبيعي من العاطفة للجنسية وتغاليان فيه. فالسادية (sadism)[٢] تعالي في الاستبعاد والسيطرة لدرجة تجعل فقط المعاملة الرديئة للمحبوب هي القادرة على إشباع الشخص الفاسد وهو يقول: "إن الدرجة العالية من السيادة التي بداخلي تجعلني أعن بك" والمازوشية masochism تغالي في الجانب المكمل والمناقض لذلك فيقول الشخص المازوشي: إني مفتون بك لدرجة تجعلني أتقبل من يديك حتى الألم، وهكذا إن لم يشكل الألم بالنسبة له شراً أو مهانة تضع إطاراً لسيادة الطرف الآخر فسوف يكف عن أن يكون باعثاً لشهوته الجنسية.

---

٢ إن التعبير الحديث عن الوحشية السادية بأنها ببساطة وحشية عظيمة، أو وحشية غير مفيدة والكاتب لا يقبله ويدينه

إن الألم لا يشكل فقط شراً يمكن التعرف عليه على الفور بل شراً لا يمكن تجاهله فيمكننا إذاً أن نرتاح وسط آثامنا وحماقاتنا، كما أن أي إنسان شاهد من قبل إنسان نهم وهو يعرف ألذ الأطعمة كما لو كان لا يعلم ماذا يأكل سوف يقر إننا نستطيع أن نتجاهل حتى المتع.

ولكن الألم يحتم أن يلتفت إليه. فإن الله يهمس لنا في متعتنا، يتكلم في ضميرنا، إلا أنه يصرخ في آلامنا، فالألم يعتبر بمثابة مكبر للصوت ضخم جدا هدفه إيقاظ العالم.

ليس هناك للإنسان الشرير والسعيد في نفس الوقت أية إشارة على أن أفعاله لا تتجاوب ولا تتناغم مع قوانين الكون. إن إدراكنا لهذه الحقيقية ينبع من الشعور البشري العام أن على الأشرار أن يتألموا ولن نستفيد شيئاً إن أدرنا ظهورنا لهذا الشعور واعتبرناه شعور مزيف تماماً، فإنه حينما يكون معتدلاً فهو يروق لنزعه العدل لدى كل إنسان.

في يوم ما، حينما كنا أخي وأنا أطفال وأثناء انشغالنا بالرسم على نفس المنضدة، حدث أنني دفعت كوعه مما جعله يرسم خطاً لا معنى له في منتصف عمله الفني، وقد تم حل الأمر بلطف لأني سمحت له بأن يرسم نفس الخط في ورقتي. وهكذا وضعت في نفس مكانه وأصبح من الممكن لي أن أرى إهمالي من وجهة نظره هو.

وهذه الفكرة تنطبق بصورة أجف وأشد على مفهوم المجازاة – أو إعطاء شخص ما يستحسنه ما يستحقه.

إن بعض الأشخاص المستنيرين يرغبون أن يمحوا من نظرياتهم العقابية أي مفاهيم تعبر عن المجازاة أو الاستحقاق ويعتبرون أن القيمة الكلية تكمن في ردع الآخرين وتقويم المجرم نفسه.

إنهم لا يرون كيف يجعلون بهذا كل أنواع العقاب غير عادلة. فماذا يمكن أن يكون لا أخلاقي أكثر من الحكم بالمعاناة لمجرد ردع الآخرين إن كنت لا أستحق ذلك؟ وإن كنت أستحق ذلك فأنكم بذلك تقرون بحق المجازاة. وماذا يمكن أن يكون أفظع من إمساكي وإخضاعي لعملية تهذيب أخلاقي كريهة بدون موافقتي الشخصية، إلا إذا كنت (وللمرة الثانية) أستحق ذلك؟

* وعلى مستوى ثالث، تتولد لدينا مشاعر انتقامية وعطش للأخذ بالثــأر. ولهذا يعتبر ذلك شر وممنوع بالنسبة للمسيحيين.

ولربما أتضح بالفعل أثناء نقاشنا حول السادية والمازوشية أن أسوأ شــيء في للطبيعة الإنسانية هو انقلاب وفساد الأشياء الصالحة والبريئة.

والمشاعر الانتقامية ما هي إلا انقلاب وفساد شيء صالح يظهر بوضوح مفزع في تعريف هوبز Hobbes (فيلســوف إنجلــيزي وواضــع للنظريــات السياسية ١٥٨٨ - ١٦٧٩) لحب الانتقام: هو الرغبة في إيذاء الغــير حتــى يجعله يدين نفسه على شيء ما[٣].

أثناء الانتقام يحول النظر عن الهدف، ولكن الهدف في النهاية ليس رديئــاً تماماً لأنه يبغي لشر الإنسان أن يصير بالنسبة له كما هو بالنسبة للآخرين.

ومما يثبت ذلك أن المنتقم لا يريد فقط للشخص المذنب أن يتألم بل لنــه يريده أن يتألم على يديه وأن يدرك ذلك ويدرك سببه. ومن هنا يــأتي الدافــع لتعبير، الإنسان المذنب بجريمته أثناء الانتقام، ومن هنا أيضــاً تــأتي بعــض العبارات الطبيعية مثل "أتسأل كيف كان سوف يشعر إن حدث له نفس الشيء، لو سوف القنه درساً. ومن أجل نفس السبب نقول ونحن نغتاب أحد الأشــخاص "أننا سوف نجعله يعلم ماذا نظن به" حينما أرجــع أجدادنــا الآلام والأحــزان لرغبة الله في الانتقام بسبب الخطية. فليس من الضروري أن سبب ذلك هــو نسبهم عواطف شريرة له، فلربما كانوا يميزون عنصر الصلاح الكــامن فــي فكرة المجازاة.

إن الإنسان الشرير يظل حبيس الوهم حتى يجد ويميز الشر الكامن فــي داخله والذي يظهر من خلال الألم. فحينما يوقظه الألم، يجعله يعلم إنه بطريقة أو بأخرى مخالف ومضاد للكون الحقيقي. قد يثور الإنسان ويتمرد مع إمكانيــة وجود عاقبة أسمى وتوبة أعمق في مرحلة لاحقة، وقد يحاول أن يقوم ببعــض التسوية التي تؤدي به في النهاية إذا استمر فيها إلى الدين. وفي وقتنا الحاضر

[٣] ليفياثان Leviathan الجزء الأول الباب السادس

قد يكون التأثيران غير أكيدان كما كان الوضع منذ أجيال حينما كان وجود إلــه (أو حتى آلهة) معروف للكثيرين ومع ذلك نراهما يحدثان الآن.

كما أن من الملحدين مثل هادري وهاوزمان Hardy and Housman مـــن يتمردون ويعبرون عن غضبهم تجاه الله رغم أنه (أو بسبب أنه) بحسب وجهة نظرهم، غير موجود.

وهناك من الملحدين مثل هوكسلي Mr. Haxley من تدفعهم المعاناة لطرح مسألة الوجود ككل ويجدون طريقة تصل بهم لحل لتلـــك المعضلـــة. وهــذه الطريقة إن لك تكن مسيحية فهي تفوق وترقى بقدر قليل جـــداً مــن مجــرد الاكتفاء الأحمق بحياة أرضية مستبيحة.

ومما لا شك فيه أن الألم حينما يستخدمه الله كمكبر للصوت ضخم يصير وسيلة بشعة، لأنها قد تؤدي إلى عصيان نهائي ولا رجعة فيه. ومع ذلك فـــهو يعطي الإنسان الشرير الفرصة الوحيدة لتقويمه وإصلاحه إنه يـــنزع الـــبرقع، ويزرع راية الحق داخل حصن النفس المتمردة.

الثانية:

وإن كان أول شيء يحدثه الألم هو أنه يحطم ويهشم الوهم بأن كل شـــيء على ما يرام فإن ثاني شيء يحدثه هو أنه يحطم ويهشم الوهم بأن ما لدينا مــن خير أو شر هو ملكنا ويكفينا. فكلنا قد لاحظنا صعوبة أن نلتفت بأفكارنا إلـــى الله حينما تسير الأمور على ما يرام بالنسبة لنا.

إن عبارة "لدينا ما نريد" تعتبر عبارة بشعة حينما لا تشمل كلمة كل وجود الله. فإننا ننظر لله كعائق. وكما يقول القديس أغسطينوس في أحد كتاباتـــه: "أن الله يريد أن يعطينا شيء ما، ولكنه لا يقدر على ذلك لأن أيدينا ملآنة، لا يوجد فيها مكان يضع فيه الله ما يريد".

أو كما ذكر أحد أصدقائي: "أننا ننظر لله كما ينظر الطيار لمظلته الهابطة (البرشوت)، فهي موجودة للحالات الطارئة وهو يتمنى ألا يحتاج في يوم مـــا لاستخدامها".

إن الله الذي خلقنا يعرف ماهيتنا ويعلم أيضاً أن سعادتنا تعتمد عليه. ولكننا لن نبغي هذه السعادة فيه إن ترك لنا أي موارد أخرى تبدو لنا ولو ظاهرياً جديرة، بأن نبحث فيها. فإننا لن نستسلم ولن نخضع لله إذا بقيت الحياة التي نسميها حياتنا الشخصية سارة ومرضية.

فماذا يستطيع أن يفعله الله من أجلنا سوى أن يجعل حياتنا الشخصية أقل سروراً وأن ينزع كل موارد السعادة المزيفة التي نقبلها؟ ههنا ينجلي التواضع الإلهي الذي يستحق كل تسبيح، ينجلي تنازله من علاه، رغم أن الرحمة الإلهية تظهر في بادئ الأمر على إنها قمة للقسوة.

إننا نتحير حينما نرى المصائب والبلايا وهي تهبط على أناس مهذبين، مسالمين وأفاضل، أو على أمهات فطنات ودؤبات، أو على أناس لهم عمل تجاري صغير مجتهدين، مدبرين فيه، يعملون بكل قوة وأمانة حتى ينالوا قسطهم المتواضع من السعادة وبالتالي من حقهم أذن أن يتمتعوا به.

كيف يمكنني أن أقول ما يجدر أن يقال باللين الكافي؟ إني أعلم ولا يعنيني إن تحولت وأصبحت في نظر بعض القراء المتشددين كما لو كنت شخصياً مسئولاً عن الآلام التي أحاول تفسيرها، تماماً مثل القديس أغسطينوس الذي يتحدث عنه كل الناس حتى وقتنا هذا كما لو كان يريد أن يذهب الأطفال الغير معمدين إلى الجحيم.

ولكن ما يعنيني بقوة هو ألا أكون السبب في حيدان أحد عن الحق. إنني أتوسل القارئ أن يحاول أن يصدق، ولو الآن فقط، أن الله الذي خلق هؤلاء البشر المستحقون، قد يكون حقاً على صواب عندما يفكر أن رخاؤهم المتواضع وسعادة أنجالهم لا تكفي لكي يصيروا مباركين. أن كل هذه الأشياء يجب أن تسقط عنهم لأنهم إن لم يتعلموا كيف يعرفوا الله فسوف يصبحون تعساء.

ولهذا يعكر الله صفوهم، حتى يحذرهم مسبقاً بالنقص والقصور الذي سوف يكون عليهم أن يكتشفوه في يوم ما. فالحياة بالمعنى الذي تعنيه لهم ولعائلاتهم تشكل عائق بينهم وبين اكتشاف وتمييز ما يحتاجونه ولهذا يجعل الله هذه الحياة أقل حلاوة بالنسبة لهم.

وإني أطلق على ذلك تواضع إلهي لأنه من الركيك أن نخضع أو نستسلم لله والسفينة تغرق لسفل أقدامنا ركيك أن نأتي له بعد أن أصبح هو المورد الوحيد الباقي، وأن نهبه أنفسنا وهي لا تستحق بعد أن نحتفظ بها. فإن كان الله متكبر لكان من الصعب عليه أن يقبلنا في مثل هذه الظروف، لكنه ليس كذلك: إنه ينحني ليغلب فسوف يقبلنا رغم أننا أظهرنا بوضوح أننا نفضل عليه أي شيء آخر ولأننا نأتي إليه لأنه لم يعد يوجد أي شيء أفضل يمكننا اقتناؤه.

ونفس هذا التواضع الإلهي يظهر عندما يلجأ الله لإخافتنا وذلك يزعج ذوي الأفكار والمبادئ السامية عندما يقرأون الكتاب المقدس.

ليس من المديح إذاً لله أن نختاره كبديل للجحيم، ومع ذلك فهو يتقبل ذلك أيضاً.

ولأجل مصلحة المخلوق، يجب تحطيم وهم الاكتفاء الذاتي، وذلك قد يكون عن طريق البلايا أو عن طريق الخوف من الابتلاء على الأرض أو الخوف من النيران الأبدية. والله يفعل ذلك وهو غير مكترث بمجده الذي يتنازل عنه. إن الأشخاص الذين يودون أن يصير الله في الكتاب المقدس أكثر أخلاقية (أو عقلية؟) لا يدركون ماذا يطلبون.

فإن كان الله بحسب فكر Kant (فيلسوف ألماني ١٧٢٤- ١٨٠٤) لا يقبل أن نأتي إليه إلا انطلاقاً من أطهر وأفضل الدوافع والنيات، من كان سيخلص؟ إن وهم الاكتفاء الذاتي قد يكون في أعلى درجاته لدى أشخاص شديدي الأمانة، واللطف والتعفف ولهذا على مثل هؤلاء تسقط المصائب. ولأن الاكتفاء الذاتي شديد الخطورة على الإنسان فلهذا ينظر الله لعيوب الفاشلين من الناس ويكشفها برفق.

أكثر من الذي يظهر في حالة العيوب التي تؤدي للنجاح العالمي. أي أن الزانيات لسن معرضات لخطر اعتبار حياتهن مسرة ومرضية مما يجعلها لا تستطيع اللجوء لله، ولكن المتكبر، البخيل والبار في عيني نفسه هم الذين معرضون لهذا الخطر.

الثالثة:

إن الصورة الثالثة للمعاناة تعتبر صعبة الاستيعاب قليلاً. إن الجميع يقرون أن الاختيار مرتبط بالإدراك بصورة أساسية أي أن الاختيار يتضمن أن يعلم الإنسان أنه يختار.

وهكذا أختار دائماً إنسان الجنة أن يتبع إرادة الله. وهو بذلك أيضاً أشبع رغباته الشخصية لأن كل التصرفات التي كانت مطلوبة منه كانت تتوافق مع ميوله البريئة وكذلك لأن خدمة الله كانت في حد ذاتها أكثر المتع التي يشتاق إليها التي بدونها تعد كل المناهج بلا نفع بالنسبة له. وهنا يطرأ سؤال: هل أنا أفعل ذلك فقط من أجل الله أم لمجرد إني أحب ذلك؟ لأن ما كان يحبه في المرتبة الأولى كان هو ما يفعله من أجل الله.

كانت إرادته تمتطي سعادته كما لو كانت حصان مدرب جيداً بينما نحن حينما نكون سعداء نجد أن إرادتنا تحمل على هذه السعادة كما تتحدر سفينة إلى أسفل في نهر شديد الجريان.

وهكذا كان الإنسان يقدم متعته لله بقبول لأن التقدمة كانت في حد ذاتها متعة.

أما نحن فإننا مجموعة كاملة من الرغبات التي تتجاهل برسوخ إرادة الله ولا تتناقض ضرورياً معها وذلك نتيجة لقرون من الأستحواء واغتصاب الاستقلال الذاتي. إن كان ما نحب أن نفعله في الواقع يتوافق مع ما يريد الله منا.

فإن هذه مجرد صدفة سعيدة ولا يكمن هنا السبب وراء سلوكنا. ولهذا لا نستطيع أن ندرك إطلاقاً، أو منذ البداية، إن كنا نتصرف من أجل إرضاء الله إلا إذا كانت معطيات التصرف مناقضة لميولنا الشخصية، أو بمعنى آخر إلا إذا كانت مؤلمة فلا يمكننا اختيار ما لا نعلم أننا نختاره.

وهكذا خضوع الذات بالكمال لله يتطلب الألم، ولكي تصبح هذه الخطوة كاملة فيجب أن تنبع من رغبة طاهرة في الطاعة في غياب أو رغم وجود الميول.

إنه لمن المستحيل أن نمارس إخضاع الذات بالقيام بالأشياء التي نحبها، وأنا أعلم ذلك عن طريق تجربتي في الوقت الحاضر. حينما بدأت في كتابة هذا الكتاب كنت أتمنى أن تكون الرغبة في طاعة من هم في مركز قيادي من ضمن دوافعي. ولكني الآن بعد أن انغمست في هذا العمل فلم يعد واجب بل أغراء ومع ذلك لازلت أتمنى أن تكون كتابة هذا الكتاب موافقة لإرادة الله ولكن من غير المعقول أن أحاول أن أثبت إني أثناء عمل شيء جذاب جداً بالنسبة لي أكون في نفس الوقت أخضع نفسي إننا هنا نسير على أرض عسرة جداً. فلقد كان كانت Kant يظن أنه ليس هناك قيمة أخلاقية لأي فعل إن لم يكن مصدره الاحترام التام للقانون الأخلاقي دون أي ميل له. ولقد أتهم كانت Kant بأن لديه حالة عقلية مرضية حيث يقيس قيمة العمل بمدى كراهيته.

إن كل الرأي العام يميل لناحية كانت Kant. فأن الناس لا يقدرون إنسان حينما يفعل ما يحب فهم يقولون: "ولكنه يحب ما يفعل" وبالتالي ذلك يعني: "إذن فهو بلا قيمة".

ومع ذلك فإننا نجد الحقيقة الواضحة التي ذكرها إرسطو طاليس Aristotle (فيلسوف أغريقي) والتي تتناقض مع كانت Kant وهو أن كلما كان الإنسان بار أو فاضل كلما استمتع بالأعمال الفاضلة. ولست أعلم ماذا يستطيع الإنسان الملحد حيال هذا التناقض بين أخلاقيات الواجب وأخلاقيات الفضيلة ولكني كمسيحي أقترح الحل الآتي.

هل الله يأمرنا ببعض الأشياء لأنها صائبة أم أن بعض الأشياء تعتبر صائبة لأن الله يأمرنا بها؟ لقد طرح هذا السؤال في عدة أوقات.

وأنا مع هوكر Hooker

وضد د. جونسون Dr. Johnson

اعتنق بكل تأكيد الاحتمال الأول، لأن الاختيار الثاني قد يؤدي إلى النتيجة الكريهة التي وصل إليها حسب ظني بالي Paley وهي أن فعل الخير جيد وصالح فقط لأن الله يأمرنا به إجبارياً، وإنه كان من الممكن لله كذلك أن يأمرنا بأن نكرهه وأن نكره بعضنا البعض وفي هذه الحالة كانت الكراهية سوف تكون صائبة.

وفي مقابل ذلك أني أعتقدهم مخطئون الذين يظنون أنه لا يوجد أي سبب لمشيئة الله حيال أي تصرف سوى مشيئته[٤].

إن مشيئة الله محددة بحكمته التي تدرك وصلاحه الذي يحتوي ويحتضن كل ما هو صالح في جوهره.

ولكننا عندما ذكرنا أن الله يأمر أو يوصي ببعض الأشياء لمجرد كونها صالحة لابد لنا أيضاً أن نضيف أن من ضمن الأشياء الصالحة في جوهرها هي أن المخلوقات العاقلة لابد لها أن تخضع ذواتها بالطاعة وبكل حرية لخالقها. وسوف يظل دائماً مضمون الشيء الذي أمرنا به، ومضمون طاعتنا شيء صالح في جوهره أي شيء يجب علينا أن نفعله حتى وإن لم يأمر به الله (وهذا بالطبع احتمال مستحيل) وبالإضافة إلى ذلك فإن الطاعة في حد ذاتها تعتبر شئ صالح في جوهره لأن بالطاعة يمارس قصداً المخلوق العاقل دوره كمخلوق، ويعكس الفعل الذي أدى بنا إلى السقوط.

إنه يسير برقصة آدم إلى الخلف ويرجع لله.

ولهذا نحن نتفق مع أرسطو أن الشيء الصالح في جوهره قد يكون مقبول ومرضٍ وأن كلما صار الإنسان صالح كلما أراده وحبه ولكننا نتفق مع كانت Kant حتى نقول أن هناك عمل واحد صائب وهو إخضاع الذات لله ولا يمكن للمخلوقات الساقطة أن تريده وأن ترغب فيه إن لم يكن غير مرضي. ويجدر بنا أن نضيف أن هذا الفعل الواحد يحتوي ويتضمن على كل الأشياء الصالحة الأخرى.

إن المخلوق حينما يقبل ويسلم بشيء يخالف طبيعته، بدون رغبة داخلية تعضد ذلك الشيء فهو بذلك يمحو إلى التمام سقوط آدم، ويقوم بالخطوة التقهقرية الشديدة السرعة التي بها يتعقب رحلتنا الطويلة بعيداً عن الفردوس، ويحل العقدة القديمة والصعبة، والمخلوق حينما يفعل ذلك فليس له إلا دافع واحد محتمل.

---

[٤] من كتاب قوانين السياسة الجامعة الباب الأول ١،٥. لهوكر
Hooker. Liwis of Eccl. Polity I.i.5.

إن هذه الخطوة يمكن أن توصف بأنها اجتياز لمدى رجوع الإنسان لله ولهذا قال الآباء أن المصائب تأتي لتجربتنا. ولدينا مثل معروف وهو تجربة إبراهيم حينما طلب منه أن يضحي بابنه اسحق.

ولست أعني هنا بمدى تاريخية أو أخلاقية هذه القصة ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بوضوح هنا هو: "إن كان الله كلي المعرفة فلابد أنه كان يعرف ما كان سوف يفعله إبراهيم بلا حاجة للتجربة، فلماذا أذن هذا التعذيب العديم النفع؟ ولكن القديس أغسطينوس° يوضح أنه بغض النظر عن ما كان الله يعرفه فإن إبراهيم لم يكن يعلم إطلاقاً أن طاعته يمكنها أن تحتمل وتقبل بمثل هذا الأمر حتى علمته التجربة ذلك. ولهذا لا يمكننا أن نقول أن الطاعة التي لم يكن يعلم أنه سوف يختارها لا يمكن أن يكون قد اختارها دون حدوثها.

إن حقيقة طاعة إبراهيم تتمثل في الفعل ذاته الذي قام به، وحينما نتحدث عن معرفة الله بأن إبراهيم سوف يطيع فإننا نعني أن الله يعرف بطاعته الواقعية التي حدثت على قمة الجبل في ذلك الوقت إذن أن نقول أن الله لا يحتاج لأن يقوم بالتجربة كأن نقول إن لأن الله يعلم فإن الشيء المعلوم لدى الله لا يحتاج لأن يوجد. وإن كان الألم يحطم ويشتت الاكتفاء الذاتي الزائف لدى المخلوق إلا أنه يلقنه وهو في أوج التجربة والتضحية ماهية الاكتفاء الذاتي الحقيقي الجدير بأن يكون بداخله وما هي القوة التي كانت معطاة له في الجنة ويمكن أن تدعى ملكه، وذلك لأن في غياب كل الدوافع والركائز الطبيعية التي يستند عليها فإنه يسلك من خلال تلك القوة وحدها التي يمنحها الله إياه حينما يسلم إرادته ويخضعها.

إن إرادة الإنسان تصبح حقاً إرادته وتصير حقاً خلاقه حينما تصبح بالكامل ملكاً لله، ويعتبر هذا المفهوم واحد من ضمن المعاني الكثيرة الموجودة في: "من أضاع نفسه من أجلي يجدها. وفي كل المواقف الأخرى فإن إرادتنا تتغذى من الطبيعة أي من الأشياء المخلوقة الأخرى التي تختلف عن الذات وذلك من خلال الرغبات الوراثية أو الجسدية.

° De civitate Dei, Xvi, XXXII

إننا حينما نسلك بحسب ما فقط ما بداخلنا، أي بحسب الله الموجود بداخلنا فإننا نصير شركاء وأدوات حية للخليقة وهذا السلوك أو تلك الخطـــوة تبطــل للعنة الغير خلاقة التي سببها آدم لنوعه ولكن ذلك يحدث وقوة الإرادة الممزقة تدمدم أثناء التقهقر للخلف.

وهكذا كما يمثل الانتحار التعبير النمطـــي عـــن النفـــس الرواقيـــة (أي المنضبطة أو الصلبة، وكما تمثل الحرب التعبير النمطي عن النفـــس المقاتلـــة فكذلك يظل دائماً الاستشهاد هو كمال وأوج المسيحية. وقد ابتدأ المسيح هـــذا العمل الجليل من أجلنا في الجلجثة، قام به بالنيابة عنا، أعطانا النموذج الـــذي يجب أن نتتبعه ونقله لكل المؤمنين بما يفوق كل إدراك.

وهناك في الجلجثة يصل قدر الموت الذي يستطيع الإنســـان أن يتقبلـــه لأقصى حد يمكن للعقل أن يدركه بل ربما أيضاً يفوقه لأن هناك ليست الركائز الطبيعية وحدها هي التي تترك وتهجر الإنسان بل أيضاً وجـــود الآب نفســـه يتخلى عن الضحية التي قامت بالتضحية من أجله ولكن خضوعها واستسلامها لله لا يتغير رغم ذلك.

إن عقيدة الموت التي أصفها ليست بغريبة على المسيحية لقد كتبتها الطبيعة نفسها في العالم كله من خلال الدراما المتكررة لحبة الحنطة التي تدفن وتظـــهر من جديد في سنابل القمح. لقد تعلمتها القبائل الزراعية القديمة ذلك من الطبيعـــة وبواسطة الذبائح من الحيوان أو الإنسان أظهرت حقيقة واحدة عبر قرون عديـدة وهي أنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة (عـــبرانيين٩:٢٢) وإن كـــانت هـــذه المفاهيم قد اختصت في بادئ الأمر بمحاصيل وثمار القبائل إلا أنها جاءت فيمـــا بعد ضمن الأسرار الغامضة التي تخص الموت الروحي وقيامة الإنسان.

إننا نجد الناسك الهندي وهو يميت جسده فـــوق ســـرير مصنـــوع مـــن الأشواك، إنه يلقنا نفس الدرس السابق. كذلك الفيلسوف الإغريقي يخبرنـــا أن حياة الحكمة ما هي إلا ممارسة للموت[٦].

---

[٦] plato phoed., 81, Accf 64, A

والوثني المعاصر النبيل والمفعم بالأحاسيس يجعل ألهتــه التــي تخيلــها تموت في أثناء الحياة[٧] ويشرح لنا بتمعن مستر هوكسلي Mr. Haxley (كــاتب إنجليزي ١٨٩٤ - ١٩٦٣) مفهوم عدم التعلق. إننا لا نستطيع التــهرب مــن عقيدة الموت إن توقفنا عن أن نصير مسيحيين، حيث إنها تعتبر إنجيل وبشارة أبدية معلنة للبشر في أي مكان يرى فيه الإنسان الحقيقة ويتحمل عناءها. إنــها عصب الفداء الحقيقي المكشوف المظهر والمحلل للحكمة في كل زمان ومكان.

إنها معرفة لا مناص منها، يضعها لقوة النور الذي ينير لكل إنسان فــي أذهان كل من يتسأل بجدية عن ماهية هذا الكون.

ولا تكمن خصوصية الديانة المسيحية في تعليم هذه العقيدة بل في جعلــها بطرق شتى أكثر قبولاً.

تعلمنا المسيحية أن المهمة الصعبة قد تم تقسيمها نوعاً ما من أجلنا، كمــا تعلمنا أن يد السيد تمسك بيدنا ونحن نحاول تعقب تلك الحروف الصعبــة وأن كتاب حياتنا ليس إلا صورة لا أصل.

مرة أخرى في المقارنة مع الأنظمة الأخرى التي تعرض طبيعتنا ككــل للموت مثل الإنكار في البوذية، نجد أن المســيحية تتطلــب فقــط تصويــب وتصحيح لضلال حدث في طبيعتنا وهي في ذلك.

لا تتعارض، مثل أفلاطون، مع الجسد كجسد ولامع المكونات والعنــاصر الجسدية الموجودة في تركيبنا، والتضحية لا تستوجب كل هذه المكونات حتــى تتحقق في أوجها

لقد خلص المعترفين والشهداء، كذلك بعض كبار السن الذين وصلوا إلــى سن السبعين والنعمة تتبعهم بصورة سهلة وغريبة، نعمة يصعب أن يشك فيها.

إن ذبيحة المسيح تتكرر أو يعاد صداها بين تابعيه بدرجات تختلف مــن شخص لأخر، بدءاً بأفظع وأعنف صور الاستشهاد نزولاً إلى قصد أو العــزم

---

[٧] Keats. Hypeuon III 130

على إخضاع الذات وهنا لا يمكن تمييز العلامات الخارجية التي تنشأ عن تلك التي تنشأ كثمار طبيعية للتعفف أو التعقل الحسن.

لست أعلم لأسباب هذا التوزيع فيما بين الأشخاص، ولكن من وجهة نظرنا الحالية نرى بوضوح أن السؤال هنا لا يكون: لماذا يعاني بعض الأناس المتواضعين، التقيين والمؤمنين بل لماذا بعضهم لا يعاني؟

لقد أرجع السيد نفسه خلاص السعداء في هذه الحياة لقدرة الله البعيدة عن الفحص وحدها ويجب أن نتذكر ذلك (مرقس١٠:٢٧).

إن كل البراهين المبينة لتعليل المعاناة تؤدي إلى الاستياء المرير ضد الكاتب. فقد تود أن نعرف كيف أتصرف عند اختبار الألم وليس أثناء كتابة كتاب عنه. لست بحاجة إذن لأن تخمن حيث أنني سوف أخبرك بأني جبان كبير.

ولكن ماذا يمثل ذلك لقضيتنا؟

حينما أفكر في الألم: في الهم الذي ينخر مثل النار، في الوحدة التي تنتشر بسرعة مثل الصحراء، في روتين البؤس المتكرر الذي يكسر القلب، في الأوجاع الكئيبة التي تخلع قلب الإنسان بنفخة واحدة، في تلك الآلام التي تبدو أساساً غير محتملة ثم تزداد فجأة، في لسعة العقرب التي تهيج الدم وتجعل الإنسان يقوم بحركات جنونية مفزعه وهذا الإنسان كان في الأصل نصف ميت نظراً لعذاباته السابقة مرة أخرى حينما أفكر في هذا الألم فإنه ينتصر على روحي.

لو كنت أعلم أي طريقة تجعلني أهرب منه لكنت زحفت عبر مجاري مياه المراحيض والبلاليع حتى أجدها.

ولكن بماذا يفيد أن أخبرك بمشاعري؟ فإنك تعلمها بالفعل لأنها تماثل مشاعرك.

لست هنا أحاول أن أبرهن أن الألم ليس مؤلم، فالألم يوجع وهذا ما تعنيه الكلمة. أنني أحاول هنا فقط أن أوضح أن العقيدة المسيحية القديمة التي تعلم

بأن الإنسان يكمل بالألم (عبرانيين٢:١٠) هي قابلة للتصديق. وأنه يفوق قدراتي أن أثبت إنها سائغة.

وحتى نصل إلى تصديق هذه العقيدة يجب ملاحظة مبدئان مهمان. يجب علينا أن نتذكر في بادئ الأمر أن لحظة الألم الحالية ما هي إلا مركزاً لما يمكن أن نسميه مجموعة الشدائد والمحن التي تبسط نفسها من خلال الخوف والشفقة.

فمهما كانت تأثيرات هذه التجارب جيدة إلا أنها تعتمد على المركز (الألم الوقتي). وهكذا وأن كانت لا توجد للألم أية قيمة روحية، وكانت للخوف والشفقة هذه القيمة الروحية فلابد من وجود الألم حتى يكون هناك ما يخافه الإنسان ويشفق على نفسه منه.

ومما لا شك فيه أن الخوف والشفقة يساعداننا على الرجوع للطاعة وعمل الخير. وقد أختبر كل واحد منا كيف تؤثر الشفقة علينا وتجعلنا نحب من لا يبدو لطيف أو جميل أي نحب البشر ليس لأنهم مقبولون لدينا و لكن لأنهم أشقاء لنا في الإنسانية أن أغلبنا قد تعلم الفائدة التي تحدث نتيجة للألم أثناء الأزمات تلك التي تنشئ تدريجياً داخلنا الصراع الحالي. وأن تجربتي الشخصية مشابهة لذلك.

فأنني لسير وأتقدم في وادي هذه الحياة، بكل رضى بحالتي الساقطة الخالية من وجود الله، تستحوذ على جلسة مرحة سوف أقضيها مع بعض الأصدقاء في الغد، أو قليل من العمل بداعب غروري اليوم، إجازة أو كتاب، حتى أفاجأ بألم يطعنني في بطني ويهددني بمرض خطير أو أقرأ عنوان رئيسي في الجرائد يهددنا جميعاً بالدمار عندها تنقلب أوراقي رأساً على عقب.

في البداية أشعر أنني أغرق وأن كل سعادتي تبدو وكأنها لعب متهشمة. ثم بعد ذلك أحاول ببطئ بتمنع، خطوة بخطوة أن أصل للحالة الذهنية التي يجب أن تكون في كل وقت.

فأذكر نفسي أن هذه اللعب لم يكون الغرض منها أبداً أن تستحوذ على قلبي وأن الصلاح الحقيقي وخيري موجود في عالم أخر وأن المسيح هو كنزي الوحيد والحقيقي.

وربما أنجح بنعمة الله في أن أكون لمدة يوم أو اثنان مخلوق يدرك أنه يعتمد على الله ويستمد قوته من المصادر الصحيحة.

ولكن في اللحظة التي فيها يتلاشى هذا التهديد على حياتي فإن طبيعتي تقفز مرة أخرى لتلك اللعب. وعندها وليسامحني الله على ذلك، يكون همي منحصر في أن أطرد من ذهني الشيء الوحيد الذي سانديني وأنا واقع تحت التهديد وذلك لأنه أصبح في الوقت الحالي مرتبط بالبؤس الذي كابدته أثناء تلك الأيام القليلة. ومن هنا تتضح الأهمية الرهيبة للمحن والشدائد.

لقد صيرني الله ملكاً له لمدة ٤٨ ساعة وذلك بالقوة لأنه أبعد عني أي شيء آخر.

دعه أذن يغمد سيفه عني للحظة وسوف أسلك مثلما يسلك الجرو الصغير حينما ينتهي الحمام الذي يكرهه، أي أنني سوف انتفض حتى أجف بقدر الإمكان ثم أسرع حتى أستعيد قذارتي التي تشعرني بالراحة وذلك إن لم يكن في أقرب تل من السباخ المتراكم فسوف يكون في أقرب أصيص ورود.

ولهذا لا يمكن أن تتوقف المحن والشدائد حتى يرى الله إننا قد تبدلنا أو حتى يرى أن تغير حالنا شيء مفقود الأمل فيه ثانياً، حينما نفكر في الألم كمركز للمجموع العام للشدائد والمحن فيجب علينا أن ننتبه أننا نلتفت لشيء نعرفه وليس لشيء نتصوره. ومن أجل هذا تم تخصيص مركز هذا الكتاب للألم الإنساني وقد تم تخصيص باب آخر للألم الحيواني.

إننا نعلم ونعرف الألم الإنساني ولكننا نفكر ونتمعن نظرياً فقط فيما يخص الألم الحيواني.

ولكننا يجب علينا أن نستمد أدلتنا حتى فيما يخص الجنس البشري من مواقف استطعنا أن نلاحظها.

فهناك من الشعراء والكتاب من يميل لتقديم المعاناة كشر تام من حيث تأثيرها وهي التي تنشئ وتسبب كل حقد وضغينة ووحشية في داخل الشخص الذي يتألم. وبالطبع يمكن أن نتعامل مع الألم بهذه الطريقة مثل ما نتعامل مع المتعة حيث أن كل ما يعطي للمخلوق الحر الإرادة يجب أن يكون ذو حدين[^] وذلك بسبب طبيعة المستقبل وليس بسبب طبيعة المعطى أو العطية في حد ذاتها.

ويمكن للنتائج الشريرة للألم أن تتضاعف لدى الشخص المتألم أن أخبره باستمرار ومثابرة المتفرجون من حوله إن هذه هي النتائج الإنسانية المناسبة التي يجب أن تظهر عليه.

إن السخط أو الحنق على آلام الآخرين، رغم أنه يمثل عاطفة كريمة، إلا أنه يحتاج للتحكم فيه وحسن استغلاله حتى لا يخطف من الشخص المتألم الصبر والتواضع ويزرع عوضاً عنهما غضب واستنكار. ولست مقتنع أن المعاناة بميلها الطبيعي تسبب أي من هذه الشرور أن أحجمت عنها عبارات الحنق والغضب التي تمثل تدخل في شئون الغير وتصرف بالإنابة عن الشخص المعنى.

لأنني لم أجد في خنادق الصفوف الأمامية في الحرب كراهية، أنانية، تمرد أو عدم أمانة أكثر من أي مكان آخر.

بل رأيت جمال روح عظيم في أناس كانوا من أعظم المتألمين ورأيت أن الناس في معظم الأحيان يتطورون للأفضل وليس للأسوأ مع مرور السنين كما رأيت الألم أو المرض الأخير يستخلص كنوزاً من الجلد والثبات والوداعة من أكثر الناس بشاعة. لأنني أرى في بعض الشخصيات التاريخية المحبوبة والمحترمة مثل جونسون وكوبر[٩] Johnson, cowper ملامح في شخصيتهم لم تكن لتصير مقبولة إن كان هؤلاء الرجال أسعد حالاً.

[^] بمزيد من المعلومات عن الطبيعة المزدوجة للألم، أنظر الملحق.

[٩] شاعر إنجليزي (١٧٣١ ١٨٠٠) (المترجم)

إن كان العالم عبارة عن وادي تصنع فيه الأنفس فيبدو أنه يقوم بمهمتـــه على أكمل وجه.

أما بالنسبة للفقر، وذلك الغم الذي يحتوي بداخله على باقي الهموم فلست أجرؤ على أن أتحدث من نفسي.

وإن الذين يرفضون المسيحية فلن يؤثر فيهم قول المسيح بأن الفقـــر مطوب. ولكن هناك حقيقة ملحوظة يمكن أن تشدد مـــن أزرى. وهـــي أن الذين ينكرون المسيحية بكل ازدراء ويعتبرونها "أفيوناً للشعوب". يزدرون بالإنسان الغني ويحتقرون كل الجنس البشري فيما عدا الفقير. فهم ينظرون للفقير على أنه الشخص الوحيد الذي تجب حمايته من "التصفية"، ويضعون فيه كل أمال الجنس البشري. ولكن ذلك لا يتوافق مع إيمانهم بأن تـأثيرات الفقر على الذين يعانون منه شريرة بالتمام بل بالعكس فذلك يشمل ويتضمن أن الفقر له نتائج صالحة.

وهكذا يجد الماركسي (نسبة لكارل ماركس = مؤسس الاشتراكية) نفســـه في اتفاق تام مع الشخص المسيحي في معتقدين متناقضين ظاهرين تطالب بهم الديانة المسيحية وهما أن الفقر مطوب ومع ذك يجب أن يمحى.

الفصل السابع

الألم الإنساني - ٢

إن الأشياء الموجودة في الصورة التي يجب أن تكون عليها تخضع وتطابق الناموس الأبدي الثاني، ولكن حتى الأشياء التي لا توافق هذا الناموس الأبدي فهي ليست مضادة ولا مقاومة لأوامر الناموس الأبدي الأول.

هوكر .Hooker (لاهوتي إنجليزي) (١٥٥٤- ١٦٠٠).

من كتاب قوانين السياسة الجامعة

سوف أقدم في هذا الباب ستة نقاط مهمة لأتمام تقريرنا عن ألم ومعاناة الإنسانية. إنها لا تنتج واحدة من الأخرى ولهذا يجب أن يكون ترتيبها إجبارياً كما هو.

١. هناك تناقض ظاهري بشأن المحن أو الشدائد في المسيحية. طوبى للفقراء، ولكن علينا أن نمحو الفقر بقدر الإمكان سواء بالقضاء (أي العدل الاجتماعي) سواء بالزكاة أو الإحساس. طوبى لنا إن أضطهدنا، ولكننا نتجنب الاضطهاد بالسفر من مدينة لأخرى وربما نصلي حتى يجوز عنا كما صلى ربنا في جسيماني.

إن كانت المعاناة صالحة وجيدة إلا يجدر بنا أن نجد في طلبها بدلاً من تجنبها؟ إنني أجيب بأن المعاناة ليست صالحة في حد ذاتها. إن الخضوع لإرادة الله هو بالنسبة للمتألم الشيء الصالح في أي تجربة أليمة أما بالنسبة للمتفرجين فهو التعاطف الذي ينشأ وأعمال الرحمة التي تؤدي إليها.

يمكننا إذاً أن نميز ونضيف في ذلك الكون الساقط والمفدي جزئياً ٤ أشياء:

١) الصلاح البسيط النازل من عند الله.

٢)الشر البسيط الذي ينشأ عن المخلوقات المتمردة.

٣) استغلال واستثمار الله لهذا الشر من أجل غرضه الفدائـــي - وذلــك يؤدي إلى

٤) الصلاح المركب الذي يساهم فيه قبول الألم والتوبة عن الخطية.

وإن كانِ الله يستطيع أن يصنع من الشر البسيط صلاح مركب فإن ذلـــك لا يمثل عذراً للذين يقترفون ذلك الشر، وإن كان من رحمة الله إنه يساهم فـــي الخلاص. وهذا التمييز بين الأمرين مركزي.

لابد أن تأتي العثرات ولكن ويل لمن تأتي بواسطتهم هـــذا العـــثرات. إن الخطية بالفعل تسبب تضاعف للنعمة، ولكن لا يجب علينا أن نتخذ مـــن ذلـــك عذراً يجعلنا نستمر فيها.

كما أن الصليب في حد ذاته هو الأفضل، والأسوأ بيـــن كـــل الأحـــداث التاريخية، ومع ذلك يظل الدور الذي لعبه يهوذا دوراً شريراً ويمكننا أن نطبق لولاً هذا على مشكلة معاناة الآخرين، فالإنسان الرحيم يصبو لصـــالح قريبـــه وبالمثل تفعل مشيئة الله، وفي ذلك تعاون مقصود مع الصلاح البسيط.

الإنسان الشرير يقمع قريبه وهكذا يفعل الشر البسيط. ولكن الله يســتخدمه في صنع الصلاح المركب أثناء قيامه بهذا الشر وذلك بـــدون علمـــه وبـــدون رضاه.

الإنسان الأول (الرحيم) يخدم الله كابن له والإنسان الثاني (الشرير) يخدم الله كأداة.

لأنك بالتأكيد سوف تنجز وتؤدي هدف الله مهما فعلت، ولكـــن إن كنـــت تخدم الله مثل يهوذا أم مثل يوحنا، هذا هو الإختلاف بالنسبة لك.

وإن جاز للتعبير فإن نظام الكون كله مقدر طبقاً للصراع الموجود بيـــن الإنسان الصالح والإنسان الشرير.

كذلك الثمار الصالحة لثبات للعزيمة، الصبر، الرحمة والغفـــران والتـــي يسمح للإنسان للشرير أن يظهر شره ضدها، تدل على أن الإنسان الصالح من الطبيعي أن يستمر في طلب الصلاح البسيط وأقول من الطبيعي لأن في بعض

الأحيان أن هناك شخص ما أو إنسان يكون مخول أو مفوض لأنزال الألم (أو من وجهة نظري حتى لقتل) بقريبه، ولكن ذلك فقط حينما تكون هناك ضرورة ملحة والخير المراد الوصول إليه واضح. في أغلب الأحيان (وليس دائماً) يكون ذلك عندما يوجد شخص لديه السلطة لإنزال الألم، مثل سلطة الأب المنبثقة من الطبيعة، أو سلطة الحاكم أو الجندي المنبثق من المجتمع المدني، سلطة الجراح المنبثق في معظم الأحيان من المريض نفسه.

ولكننا إن حولنا ما سبق إلى رخصة عامة لإنزال القصاص والألم بالبشر لأن ذلك جيد وصالح بالنسبة لهم فإننا بذلك لا نكسر بخطة الله بل نتطوع للقيام بدور الشيطان في هذه الخطة، ونشبه في ذلك تامبرلين Tamberlaione المجذوب الذي يتفاخر بكونه سوط الله وذلك في أدب مارلو Christopher Marlawe (كاتب مسرحيات وشاعر إنجليزي ١٥٦٤ - ١٥٩٤).

وإنك إن قمت بعمل الشيطان فيجب أن تكون مستعداً لأن تنال نفس أجرته.

ونجد أن إشكالية تجنبنا للألم تحتمل نفس الحل. لقد استخدم بعض النساك أو المتقشفين تعذيب النفس وأنني كعلماني لست أقدم أي رأي حول سداده هذه الطريقة ولكني أؤكد أن تعذيب النفس مهما كانت عواقبه الحميدة يختلف تماماً عن المحن أو الشدائد التي يرسلها لنا الله. إن جميعنا يعلم جيداً أن الصوم يختلف كتجربة عن مجرد الحرمان من وجبة ما بسبب شيء عارض أو بسبب الفقر إن الصوم يقوي ويؤكد ثبات الإرادة على حساب الشهية والعائد من ذلك والسيادة على النفس ولكن هناك خطر الكبرياء. أما الجوع الغير اختياري فإنه يخضع الشهية والإرادة في نفس الوقت للإرادة الإلهية، وهو بذلك يقدم فرصة للاستسلام والخضوع ولكنه يعرضنا لخطر التمرد.

ولكن الأثر الخلاصي والفدائي للألم يكمن في أن من صفاته هي أنه يقلل من الإرادة المتمردة.

وتعتبر الممارسات النسكية والتقشفية التي تقوى الإرادة مفيدة لأنها تجعل الإرادة ترتب منزلها (العواطف) وذلك في نطاق إحضار إنسان كامل إلى الله.

إنها مهمة كوسيلة، ولكنها تصبح مكروهة إن كانت هي الهدف، لأننا إن بدلنا الشهوية بالإدارة ثم توقفنا عند ذلك فإننا بذلك نبدل النفس الحيوانية بنفس إبليسية.

وهكذا ما أصدق حقاً القول بأن الله هو وحده القادر على الإماتة إن المحن والشدائد تقوم بعملها في عالم يبحث فيه عادة البشر بأساليب شرعية مباحة عن ما يجعلهم يتجنبون الشر الطبيعي الموجود بداخلهم وما يجعلهم يصلون للخير الطبيعي الكامن فيهم، كما أن المحن والشدائد تذل وتنم عن هذا العالم.

وحتى نخضع أرادتنا لله، فيجب أن تكون لنا إرادة كما يجب أن يكون لتلك الإرادة أهداف ما. وإنكار الذات المسيحي لا يعني الجمود وبلادة الحس التي تتسم بها الرواقية، بل هو استعداد لاختيار الله وتفضيله عن الأهداف الشرعية الأخرى الأدنى. ولهذا نرى أن الإنسان الكامل أثناء وجوده في بستان جسيماني كان بإرادته يبغي بقوة الإفلات من الألم والموت. إن كان هذا يتوافق مع مشيئة وإرادة الله مع وجود استعداد تام للطاعة في الحالة العكسية.

إن بعض القديسين يوصون بإنكار تام للذات مع بداية التلمذة ولكنني أظن أن هذا يعني فقط استعداد تام لكل مرة يتطلب فيها الأمر لإنكار[١] وإخلاء الذات لأنه من الغير ممكن أن نعيش حياتنا من لحظة للأخرى ونحن لا نبغي شيء إلا الخضوع لله بهذه الصورة. ماذا أن يمكن أن يكون جوهر الخضوع؟ يظهر تناقض ذاتي إن قلنا: إن ما أريده هو إخضاع ما أريده لإرادة الله"، لأن الـ "ما" الثانية تكون بلا مضمون (لأن الإنسان لا يعرف المستقبل وما سوف يريده بالتحديد) ومما لا شك فيه أننا نهتم كثيراً بتجنب ألمنا الشخصي، وهكذا إن كانت هناك رغبة مضبوطة وقتية لتجنب الأمر بالطرق المباحة والشرعية، فإن ذلك يتوافق مع الطبيعة، أي أنه يتوافق مع كل فاعليات حياة المخلوقات، التي

---

[١] Cf. Brother Lawrwnce, practice of the presence of God. Iv th converstion, November 25 th, 1667

إن إنكار الذات الصادق هو أن نكون حساسين لكل ما لا يؤدي بنا إلى الله.

من أجلها قد تم أعداد وحساب تأثير المحن والشدائد الفدائي. ولهذا سوف يكون من الخطأ أن تظن أن المفهوم المسيحي للمعاناة لا يتفق مع الإبراز الشديد لواجبنا في جعل هذا العالم أفضل من بعدنا حتى بالمعنى الدينوي لذلك ويبدو لنا أن السيد الرب قد جمع كل الفضائل في واحدة وهي فعل الخير الإيجابي والمؤثر وذلك من خلال الصورة الرمزية الكاملة عن الدينونة. وإن كان من المضل. أن نأخذ مثل واحد بمعزل عن البشارة كوحدة واحدة إلا أن مما لا شك فيه إنه كافي لوضع المبادئ الأساسية للأخلاقيات الاجتماعية المسيحية.

٢- إن كانت المحن والشدائد تمثل عنصر ضروري في الفداء، فيجب علينا أن نتوقع ألا نتوقف حتى يرى الله أن العالم قد تم فداءه أو حتى يرى أنه لم يعد في الإمكان فداءه. ولهذا السبب لا يستطيع المسيحي أن يصدق من يعدوه بالسماء على الأرض فقط في حالة حدوث إصلاح في النظام الاقتصادي والسياسي والصحي.

وقد يبدو وأن ذلك يثبط من عزم الشخص المندمج في العمل الاجتماعي ولكن الواقع العملي يثبت أن ذلك لا يحدث. على النقيض نجد أن شعورنا القوي ببؤسنا المشترك كبشر يحرضنا على الأقل على إزالة كل المآسي التي نقدر على إزالتها، ولكنه في ذلك يشبه الرغبات الهمجية التي تجرب الإنسان فيبغي تحقيقها بالتعدي على القانون الأخلاقي، فتتلاشى كالتراب والرماد عند تحقيقها.

وإن طبقنا ذلك على الحياة الفردية لكل إنسان فسوف نجد أن اعتقادنا بأن دافعنا القوى في نزع الشر الحالي هو مستمد من الرغبة في إيجاد سماء على الأرض، اعتقاد باطل. فلا يكف الجائع عن طلب الطعام، أو المريض عن طلب الشفاء لعلمه إنه الحياة المتذبذبة صعوداً ونزولاً تنتظره بعد الوجبة أو العلاج.

ولست هنا بالطبع لأجادل أن كانت تغيراته فعالة في نظامنا الاجتماعي مرغوبة أم لا، ولكنني فقط أذكر القارئ أننا لا يجب أن نخلط فيما بين دواء ما وأكسير الحياة.

٣- حيث أن هناك قضايا سياسية قد اعترضت طريقنا، فيجب علـــي أن أوضح أن عقيدة إخضاع الذات والطاعة هي لاهوتية تماماً وليســت سياسـية على الإطلاق، وليس لدى ما أقوله حول الأشكال الحكومية، السلطة المدنيـة أو الطاعة المدنية.

إن نوع وقدر الطاعة التي يجب على المخلوق أن يقدمها لخالقه هي فريدة في نوعها لأن علاقة المخلوق بالخالق هي أيضاً في يده في نوعها، فلا يجـب أن نستدل بواسطتها عن أي علاقة سياسية.

٤- إن عقيدة الألم والمعاناة المسيحية تفسر لنا على ما أعتقـــد، حقيقـة غريبة حول العالم الذي نعيش فيه وهي أن الله يمسك عنا، من خلال طبيعـــة هذا العالم، السعادة الراسخة والأمن الذي يبغيه جميعنا.

إلا أنه ينثر ويذيع الفرح، المتعة والمرح في كل مكان. لا نكون أبداً فـي أمن تام، ولكننا نقضي وقت ممتع ونشعر ببعض النشـــوة. لأن هـذا الأمـن والأمان الذي نتوق إليه سوف يعلمنا كيف نجعل قلبنا يستقر في هـــذا العـالم وبالتالي يعوق رجوعنا إلى الله. ولكن أوقات قليلة من الحب السـعيد، منظـر طبيعي، سيمفونية، لقاء مرح مع بعض الأصدقاء، حمام أو مباراة لكرة القــدم لن يشكلوا مثل ذلك العائق. أن أبونا ينعشنا خلال رحلتنــا ببعـض الفنـادق الصغيرة اللطيفة ولكنه لن يشجعنا على أن نخطئ الوصول للمنزل بسببها.

٥- لا يجب علينا أن نعطي للألم قيمة تفوق قيمته الحقيقية بحديثنا المــهم عن: "حاصل بؤس البشرية الذي يفوق التصور". تصور أنني أعاني من ألم في الأسنان مقداره س وأفرض أنك الجالس بجانبي وتبدأ أيضاً في الشعور بألم في الأسنان مقداره س. يمكنك أن اخترت كذلــك، أن تقـول أن محصلــة الألــم الموجود في هذه الحجرة هو الآن ٢س، ولكنك إن بحثت في كل مكان وزمـان فلن تجد مثل ذلك الألم المركب في إدراك وباطن أي إنسان.

فلا يوجد شيء مثل هذا، لا يوجد محصلة للمعاناة والألم حيث لا يوجـــد من يعاني من مثل تلك المحصلة.

إننا حينما نصل لأقصى قدر من الألم يمكن لشخص ما أن يصل إليه، نكون بالطبع وصلنا لشيء رهيب، ولكننا بذلك نكون قد وصلنا لكل المعاناة التي يمكن أن توجد في هذا الكون. لأن إضافة ملايين من المتألمين الآخرين لا يزيد من ألم الفرد.

٦- إن الألم هو الشر الوحيد الذي بالإمكان تطهيره وتعميقه. إن الشر الأدبي أي الخطأ يمكن أن يحدث مرة أخرى بنفس سبب المرة الأولى (مثلاً بسبب الإرهاق، أو الكتابة بخط رديء) لأنها أشياء تستمر.

ولكن بغض النظر عن ذلك فإنه يليق بالخطأ أن يولد الخطأ: فمثلاً إذا كانت الخطوة الأولى في جدال ما أو برهان ما خاطئة فإن كل ما سيعقب تلك الخطوة سوف يكون خطأ. والخطية يمكن أن تتكرر لأن الغواية الأولى أو الإغراء المبدئي مستمر، ولكن بغض النظر عن ذلك فإن الخطية بطبيعتها تولد الخطية. تقوى العادات الخاطئة وتضعف الضمير. والألم يشبه الشرور الأخرى، يمكن بالطبع أن يتكرر بنفس سبب الألم الأول (مثل المرض أو العدو) الذي يستمر، ولكن الألم ليس لديه القابلية على التكاثر. فحينما ينتهي، فإنه بالفعل ينتهي وتكون عاقبته الطبيعية هي الفرح. ويمكننا أن ننظر لذلك الاختلاف من الاتجاه الأخر. فبعد أن ترتكب خطأ ما فلست تحتاج فقط إن تزيل السبب (الإرهاق، الخط الرديء) بل عليك أيضاً أن تصحح الخطأ نفسه، وبعد الخطيئة لا يجب عليك فقط أن تمحو أو تزيل الغواية إن كان ذلك ممكناً بل عليك أن ترجع وتتوب عن هذه الخطية.

ففي كل من الحالات السابقة يتطلب الأمر تعويض ما. ولكن الألم لا يتطلب مثل ذلك التعويض. فربما تحتاج لأن تعالج المرض الذي سبب الألم ولكن حينما ينتهي الألم فهو يصبح عقيم، في حين أن كل خطأ غير مصوب، وكل خطيئة لم تتم التوبة عنها تعتبر طبيعياً ينبوع للأخطاء والخطايا الجديدة التي تتساب لنهاية الأيام.

مرة أخرى، لنني حينما أخطئ فإن ذلك يؤثر على كل الذين يصدقونني. وحينما أمارس الخطية علانية، فإن الذي يشاهدونني سوف ينقسمون إلى

فريقين فمنهم من سوف يتجاوز عن هذه الخطية وبالتالي سـوف يشـاركونني الذنب، ومنهم من سوف يدينني وذلك يشكل خطر يهدد رحمتــه وتواضعــه. ولكن المعاناة لا تنتج بطبيعتها داخل من يشاهدها مثل ذلك الشر (إلا إذا كــان فاسداً بطريقة غير عادية) بل أن لها أثر جيد وهو الإشفاق أو الرحمة.

وهكذا نجد أن الشر الذي يستخدمه الله أساساً لصنع الصــلاح المركـب، يزول أثره (يطهر) بوضوح وهو مجرد من القدرة على التكاثر والتوالد تلــك الصفة التي تعتبر أسوأ ما في الشر بوجه عام.

الفصل الثامن



ما هو العالم، أيها الجنود؟ إنه أنا.

أنا، ذلك الثلج الغير متوقف تلك السماء الشمالية، يا جنود، إنها تلك العزلة التي نمشي فيها. إنها أنا.

والتر دولامار Walter de la Mare (شاعر وكاتب إنجليزي ١٨٧٣-١٩٥٦)

ريتشارد يحب ريتشارد

تلك هي القضية، أنا هو أنا.

شكسبير Shakespeare (أديب أنجليزي ١٥٦٤ ١٦١٦)

لقد افترضنا وتوصلنا في فصل سابق إلى أن الألم الذي يمكنه وحده أن ينشئ في الإنسان الشرير إحساس بأن كل الأشياء ليست على ما يرام، يمكنه أيضاً أن يؤدي إلى تمرد نهائي لا يمكن التوبة عنه كذلك افترضنا وتوصلنا من كل ما سبق إلى أن الإنسان لديه إرادة حرة ولهذا فكل المواهب المعطاة إليه تعتبر سلاح ذو حدين.

وكنتيجة مباشرة لهذه الافتراضات فإن عمل الله الفدائي لا يمكن أن يكون مؤكداً بالنسبة لكل نفس بذاتها. فبعضها لن يخلص. وإن كان الأمر في يدي، فلم أكن أرغب في نمو أية عقيدة من العقائد المسيحية أكثر من هذه ولكن الكتاب المقدس يدعمها ويعضدها بالكامل وخصوصاً كلمات ربنا (السيد المسيح) نفسها، كذلك لقد تمسك بها المسيحيين دائماً وهي تستند على المنطق.

إن كانت هناك لعبة ما، فلابد من أن يكون احتمال الخسارة موجود. وإن كانت سعادة المخلوق تعتمد على إخضاع واستسلام الذات، فما من أحد يمكنه أن يقوم بذلك ألا المخلوق نفسه، ورغم أن من الممكن لكثيرين أن يساعدوه في ذلك إلا أنه قد يرفض.

أنني مستعد لدفع أي ثمن يجعلني أستطيع أن أقول بكل صدق أن الجميع سوف يخلصون، ولكن عقلي يجيب بالسؤال.

"يخلصون رغماً عن إرادتهم أم بإرادتهم؟" لأنني إن قلت بدون أو رغماً عن إرادتهم. فإني في الحال أدرك تناقض فيما أقوله، فكيف يمكن أن نقوم بإخضاع الذات لا أرادياً أو جبرياً وهو أعظم عمل إرادي؟

وإن قلت يخلصون بإرادتهم فإن عقلي يجيب "كيف ذلك إن لم تستسلم إرادتهم.

وإن كلمات الرب عن الجحيم، مثلها مثل كل الأقوال الربانية، موجهة للإدراك وللإرادة وليست موجهة إلى حب استطلاع وفضولنا العقلي.

فعندما دفعتنا تلك الكلمات لكي نتحرك وأقنعتنا لوجود احتمال رهيب ومخيف فإنها بذلك أدت في الغالب للنتيجة المرغوب فيها والمرجوة. وإن كان كل سكان العالم من المسيحيين المؤمنين فلن يكون هناك أي داعي لقول أي كلمة أخرى تخص هذا الموضوع.

ومن هذا المنطق، فإن هذه العقيدة هي القاعدة الأساسية التي تهاجم من خلالها المسيحية على أنها همجية وبربرية كما يطعن في صلاح الله.

يقولون لنا أنها عقيدة بغيضة، وبالفعل فإنني أنا أيضاً أبغضها من صميم قلبي كما يذكروننا بالمآسي التي تحدث في حياة البشر نتيجة الإيمان بهذه العقيدة. أما بخصوص المآسي التي تحدث نتيجة الإيمان بها فإنهم يحدثوننا بصورة أقل.

وهكذا بسبب هذه الأسباب وحدها علينا مناقشة هذا الموضوع.

إن المسألة هنا لا تتمثل ببساطة في وجود إله يسلم بعض مخلوقات للدمار النهائي. فإن هذه المسألة كانت سوف تواجهنا إن كنا من أتباع محمد.

إن المسيحية كما هو الحال وفيه ومخلصة دائماً لتراكيب وتعقيدات الحقيقة، إنها تقدم لنا شيء أكثر تعقيداً وأكثر غموضاً: إله ممتلئ بالرحمة إلى درجة تجعله يصير إنسان ويموت نتيجة التعذيب حتى يقي مخلوقاته من ذلك الدمار النهائي، إلا أنه يبدو أنه لا يريد أو حتى لا يقدر أن يوقف ذلك الدمار بقدرته المحضة عندما يفشل عمله الفدائي البطولي.

لقد قلت منذ عدة لحظات بسهولة وبسرعة أنني مستعد لدفع أي ثمن حتى أنزع تلك العقيدة، إلا أنني كذبت.

فلست أستطيع أن أدفع ولو واحد على الألف من الثمن الذي دفعه الله حتى يمحو الواقع الحقيقي. وهنا تكمن المشكلة الحقيقية: كثير جداً من الرحمة رغم ذلك، هناك الجحيم.

لست هنا أحاول أن أجعل تلك العقيدة محتملة أو مستحسنة دعونا لا نرتكب أية أخطاء، فإنها غير محتملة.

ولكنني أظن أنه من الممكن أن نوضح أن هذه العقيدة أخلاقية إن قمنا ببحث تحليلي يتناول الاعتراضات التي عادة ما نوجهها أو ما نشعر بها ضدها.

أولاً: هناك اعتراض في كثير من الأذهان على فكرة القصاص العقابي. ولقد تم تناول ذلك بصورة جزئية في باب سابق. وتوصلنا فيه إلى أن أي قصاص يصبح غير عادل إن انتزعت منه فكرتي سوء الاستحقاق والعقاب. كما اكتشفنا نواة من الصلاح في داخل العاطفة الانتقامية نفسها، حيث إنها تطلب ألا يترك الإنسان الشرير وهو يتمتع تماماً بشره، بل أن شره يجب أن يظهر له كما يظهر للآخرين لقد قلت أن الألم يزرع راية الحق داخل حصن النفس المتمردة. وكنا عندها مازلنا نناقش الألم الذي يمكن أن يؤدي إلى التوبة. ولكن ماذا سوف يكون الحال إن لم يحدث ذلك، إن لم يحدث إخضاع بعد أن تزرع الراية داخل النفس؟

دعونا نكون أمناء مع أنفسنا. تصور رجلاً أعطى له المال أو السلطة نتيجة لسلسلة مستمرة من الخداع والوحشية إنساناً يستغل تحركات ضحاياه النبيلة ليصل لأهدافه الأنانية البحتة، وهو في نفس الوقت يضحك على بساطتهم. وحينما يصل إلى النجاح فإنه يستخدمه في إشباع الطمع و الكراهية وفي النهاية يتخلى عن آخر ذرة كرامة له بين اللصوص بخيانة المطوطئين معه والتهكم والاستهزاء بهم في اللحظات الأخيرة حينما يذهلون من زوال الوهم والغرور الكاذب تصور كذلك إنه يفعل كل ذلك، على عكس ما نريد أن

تتخيل، وليس هناك أي وخز للضمير أو هواجس تعذبه، بل أنه يـــأكل مثــل صبي وينام مثل طفل صحيح، طروب أحمر الوجنتين غير مكـــترث بالعـــالم، راسخ الثقة حتى النهاية بأنه وجد حل لغز هذه الحياة وبأن الله والبشـــــر هــم أغبياء استطاع هو أن يأخذ أفضل ما عندهم. واثق أن أسلوبه في الحياة نــاجح ومرض ولا يمكن اقتحامه إلى التمام. ولابد لنا من الحذر عن تلك النقطة فــأن أي تهاون مع عاطفة الانتقام والرغبة فيها هو خطية مميتة.

إن الرحمة المسيحية ترشدنا إلى بذل ما نستطيع من جهد حتـــى يرجــع ويتوب هذا الرجل، أي أن نفضل توبته عن مجازاته وإن شكل ذلـــك خطــراً على حياتنا أو ربما على أنفسنا تدعونا إلى أن نفضل ذلك بصورة لا متناهيــة. ولكن ليست هذه هي المسألة.

تصور أن ذلك الرجل لن يتوب، أي مصير في العالم الأبدي يعتبر فـــي نظرك مناسب بالنسبة له؟

وإن مكث ذلك الرجل على حالته هذه (وإن كانت لديه إرادة حـــرة فـــهو بالطبع يستطيع ذلك)، هل يمكنك بالحقيقة أن ترغب في أن تستمر سعادته إلـــى الأبد أي أن يظل مقتنع أبدياً أن الحظ يسانده؟

وإن كنت لا تستطيع أن تعتبر ذلك شيء محتمل، فهل هذا راجـــع فقــط لشرك وللضغينة التي تمنعك من ذلك؟ أم أنك تجد في ذلك صراع بين العـــدل والرحمة، تلك القضية المهجورة في اللاهوت، صراع يجري الآن في ذهنـــك وتشعر بشدة أن مصدره نابع من فوق وليس من أسفل؟ إن ما يحركـــك هـــو احتياج أخلاقي حقيقي وليست الرغبة في أن يتألم المخلـــوق لغـــرض الألـــم، فعاجلاً أم آجلاً سوف يستعلن الحق ويؤكد، وسوف تزرع الراية داخـــل هـــذه النفس المتمردة الرهيبة حتى وإن لم يلي ذلك إخضاع على أكمل وأفضل وجه. يمكن أن يعني إذن، أنه من الأفضل للمخلوق أن يدرك أنه نفسه كان يمثل فشل وخطأ حتى وإن لم يصبح أبداً صالح.

يصعب أذن على الرحمة نفسها أن تبغي دوام رضاء وسعادة هذا الرجــل الأبديان في هذا الوهم الشاحب والمميت.

لقد تحدث توما الأكويني thomas Aquinas[1] عن المعانـــة، كمـــا تحـدث أرسطو عن الإحساس بالخزي أو الذنب، وقالا أنها أشياء ليست صـالحة في حد ذاتها، ولكن يمكن أن يكون لها نفع وخير في ظروف معينة، بمعنـــى أنـــه إذا كان الشر موجود فالألم وتمييز الشر، يعتبران صـالحان كنوع من المعرفة. لأن البديل هو أن تجهل النفس الشر، أو تجهل أن الشر مناقض لطبيعتـــها وفـــي الحالتين يقول الفيلسوف أن ذلك شر مبين[2]. وأظن أنه رغم أننا نرتعـش مـن ذلك إلا أننا نتفق معه إن الرغبة في أن يغفر الله لرجل مثل هـــذا حتـــى وإن مكث في الحال التي هو عليها، مصدرها اللبس الحادث بين التجاوز والغفران. التجاوز عن الشر هو ببساطة أن نتجاهله، أو أن نتعامل معه كما لو كان خيراً أو صلاحاً. أما الغفران فيجب أن يتم قبوله عند تقديمه حتى يصير تاماً: ولـــهذا فالإنسان الذي لا يعترف ولا يقر بذنبه فلا يستطيع أن يقبل الغفران. لقد بـدأت بالحديث عن مفهوم الجحيم كقصاص عقابي إيجابي يحكم به الله وينزلـــه لأن هذه هي الصورة المنفرة بالقدر الأقصى لتلك العقيدة لذلك كنت أبغي أن أتغلب على أقوى اعتراض وجُه لها.

ولكن بالطبع رغم أن ربنا غالباً ما يتحدث عن الجحيم عـــل أنـــه حكـم قضائي إلا أنه يذكر في مكان أخر أن الدينونة هي في الحقيقة أن الناس أحبـوا الظلمة أكثر من النور (يوحنا٣:١٩) وأن كلام الله هو الذي يدينهم وليـــس الله نفسه (يوحنا١٢:٤٨).

إذاً فبما أن هذان المفهومان يحملان على المدى البعيد نفس المعنى فلنـــا مطلق الحرية في أن نفكر في هلاك هذا الإنسان الشرير الأبدي كحقيقة ناتجـة عن كونه ما هو عليه وليس كحكم نازل عليه.

---

[1] فيلسوف ولاهوتي إيطالي له دور رائد بين اللاهوتيين الكاثوليك ١٢٢٥ ١٢٧٤).

[2] Summa Theologicea III ae, Q. 39, Art 1

إن ما يميز النفوس الساقطة هو رفضهم (تركهم) لكل ما هو ليس نفسهم:[٣]

إن حب النفس الخيالي حاول أن يجعل كل شيء يقابله إلى ملك أو ملحق للنفس. لقد أخمد وأطفئ داخل الإنسان مذاق الأخر أي القدرة على الاستمتاع بالخير فيما عدا المواقف التي فيها يضطره جسده إلى الاتصال الغريزي أو الحتمي بالعالم الخارجي.

والموت ينزع ذلك الاتصال فيدرك الإنسان إذاً ما يتمناه من العيش بالكامل داخل النفس وتتميم أفضل ما يكون بما يجده داخلها. ولكنه يجد فيها الجحيم.

هناك اعتراض أخر مصدره التفاوت أو عدم التناسب الظاهري بين للهلاك الأبدي والخطية الوقتية.

وبالفعل يوجد تفاوت إن نظرنا للأبدية على أنها امتداد للزمن.

فإن نظرنا للزمن كحظ مستقيم، فذلك تشبيه مناسب، لأن أجزاء الزمن متعاقبة ولا يمكن لأثنان منها أن يوجدا في نفس الوقت، بمعنى أنه لا يوجد عرض (سمك) في الزمن فقط هناك طول. وهكذا ربما يجب علينا أن ننظر للأبدية ونفكر فيها كسطح مستوى أو حتى كشكل فراغي. إذاً سوف يمكن تمثيل الحقيقة الكاملة للكيان البشري بشكل فراغي.

وهذا الشكل أساساً من صنع الله العامل بالنعمة ومن خلال الطبيعة ومساهمة الإنسان بإرادته الحرة تعتبر خط القاعدة الذي سينمي الحياة الأرضية فإن رسمت خط قاعدتك باعوجاج فإن الشكل كله سوف يكون في المكان الخاطئ. وإن كانت واقعياً الحياة قصيرة، أو أننا نساهم بخط قصير في الشكل

---

[٣] أنظر كتاب فوق هوجل You hiigel, Essys and Addresses, 1 st series

ماذا تعني بالجنة والجحيم؟ What do we mean by heaven and Earth?

المركب ككل طبقاً للتشبيه الذي استخدمناه فإن ذلك يجب أن يعتبر في نظرنـــا من الرحمة الإلهية.

لأن حتى هذا الخط الصغير المتروك لإرادتنا الحرة يمكنه أن يفسد الكـــل إذا أسيء عمله، فما بالك بكم الخسائر الذي كان سوف يحدث للشكل الفراغـــي إن أسند إلينا وكلفنا بأكثر من ذلك؟

يمكن التعبير بصورة أبسط عن هذا الاعتراض بالقول أن الموت لا يجب أن يكون نهائي ولابد من وجود فرصة أخرى.[4] لنني أعتقد أن كانت ملاييـــن من الفرص قادرة على إصلاح الأمر فإنها سوف تمنح. ولكن المعلم يعلم فـــي أغلب الأحيان، حينما لا يعلم الأباء والتلاميذ، أنه لم يعد هناك فائدة من إرسال الصبي لاختبار ما مرة أخرى.

فالختام أو النهاية لابد أن تجيء في وقت ما، ولا يحتاج الأمـــر لإيمـــان قوي حتى نصدق أن المعرفة الكلية تعلم ميعاد هذه النهاية.

هناك اعتراض أخر مصدره هول شدة الآلام في الجحيم.

كما يتم تصويره في أدب القرون الوسطى وكذلك في بعض النصـــوص الكتابية.

ويحذرنا فون هوجل Von hiigel (فيلسوف ولاهوتي بريطـــاني ١٨٥٢ ١٩٢٥) من أن نخلط بين العقيدة في حد ذاتها وبين الصور والتشبيهات التـــي تنقل بواسطتها لنا.

إن ربنا يتحدث عن الجحيم من خلال ثلاثة رموز

- الأول عن العقاب أو القصاص (العذاب الأبدي متى٢٥:٤٦)

---

[4] لا يجب هنا أن نخلط بين الفرصة الأخرى وأياً من المطهر (للنفوس المفدية) أو الحبـــس (للنفوس الهالكة).

- الثاني عن الدمار أو الفناء (بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم متى١٠: ٢٨)
- الثالث عن الحرمان، الاستعباد والطرد إلى الظلمة الخارجية، كما في مثل الرجل الذي لا يرتدي ثوب العــرس وأيضــاً مثــل العــذارى الحكيمات والجاهلات.

إن تشبيه الجحيم بالنار الدارج استخدمه له دلالة هامة لأنه يجمع فكرتــان في طياته العذاب والفناء.

ومن المؤكد هنا أن كل هذه التعبيرات غرضها التعبير عما تعجز الكلمات عن وصف بشاعته، وكل تفسير لا يواجه هذه الحقيقة، هو بعيد عن الطريــق الصحيح من البداية. ولكن ليس هناك داع للتركيز على صور العذاب لدرجــة تجعلنا نستعبد الصور التي تعبر عن الفناء والحرمان. ولكن ما الــذي يجعــل الرموز الثلاثة مناسبة وملائمة بنفس القدر؟

إننا نفترض ونسلم طبيعياً أن الفناء (أو الدمار) يعني حل أو زوال للشيء الذي قد تم تدميره. وكثيراً ما يتحدث الناس عن إبادة النفوس كما لو كانت فــي جوهرها شيء مستطاع على أية حال فإن فناء الشيء أو تدميره يعني ظــهور شيء جديد، وذلك وفقاً لكل خبراتنا.

قم بحرق قطعة من الحطب، فستحصل على غازات، حرارة ورمــاد. أن تكون هناك قطعة خشب تعني الآن أن يكون هناك هذه الأشياء الثلاثة.

إن كان من الممكن تدمير وفناء النفس، أليس من اللازم أن يظهر حالــة هي في الأصل النفس الإنسانية التي كانت؟

أليس من المحتمل أن تكون هذه الحالة هي التي توصف بالعذاب، والفنــاء والحرمان بنفس القدر؟

لعلك تتذكر أن المثل يوضح أن المفديين يذهبون لمكان معد خصيصاً من أجلهم بينما يذهب المدانــون إلــى مكــان لــم يكــن إطلاقــاً معــداً للبشــر (متى٢٥:٣٤،٤١)

إن دخول السماء يعني أن تصبح أكثر إنسانية، بقدر يفوق كل ما توصلت إليه وأنت على الأرض، أما دخول الجحيم هـــو أن تطــرد أو تمحــي مــن الإنسانية.

إن المطروح (أو الذي طرح نفسه) في الجحيم ليس إنساناً بل بقايا.

أن تكون إنساناً كاملاً يعني أن تصبح كل شهواتك أو أحاسيســك طائعــة لإرادتك وأن تهب إرادتك لله. أما أن تكون إنساناً فيما مضى، إنسان سابق، أو روح مدانة فمن المحتمل أن يعني ذلك أن تكون الذات هي المحــور الوحيــد للإرادة وأن تكون الشهوات والأحاسيس خارج تحكم هذه الإرادة.

وأنه بالطبع من المستحيل تصور شعور مخلوق مثل هذا، فهو ليس مجرد خاطئ بل مجموعة متراخية من الخطايا المتضاربة فيما بينها.

ولعل المقولة الآتية صحيحة: "الجحيم هو الجحيم، ليس من وجهة نظــره هو في حد ذاته بل من وجهة نظر السماء ولست أظن هنا أن ذلك يتناقض مــع شدة وجدية كلمات الرب فإن مصير المدانون يبدو فقط بالنسبة لهم أقل مــن أن يقال عنه غير محتمل.

يجب إذاً علينا أن نعترف ونقر أننا حينما نفكر في الأبدية، وهو مــا تناولناه في هذه الفصول الأخيرة، فإن نوعي الألم والمتعة اللــذان كانــا يشغلاننا وقت طويل، يبدآن في التقلص عند ظهور الخير والشر بمعناهما الأوفر أو الأوسع في الأفق. فعندها لن يكون للألــم أو للمتعــة الكلمــة الأخيرة.

وحتى إن كان من الممكن أن تحتوي حياة الإنسان الضال الاختبارية (إن جاز التعبير) على كثير من المتعة وألا تحتوي على أي ألم، فمع ذلك كانت تلك المتعة السوداء سوف تكون المحرك الذي يجعل النفس التي لم تدان بعد تهرع للصلاة في هلع رهيب وحتى في حالة وجود الألم في السماء فإن كل من يدركون سوف يرغبون فيه.

هناك اعتراض رابع يقول أنه لا يوجد إنسان رحيم يمكنه أن يسعد بالسماء وهو عالم أنه هناك ولو إنسان واحد ماكث في الجحيم، وأن كان ذلك صحيحاً فهل نحن أكثر رحمة من الله؟

ويرجع سبب هذا الاعتراض للصورة الموجودة في الأذهان عن السماء والجحيم كأنهما يحدثان في نفس الوقت على نفس الخط الزمني، كما هو الحال بالنسبة لتاريخ إنجلتر وأمريكا. وهكذا يمكن للمبارك أن يقول في كل وقت: "إن مأسى الجحيم تجري الآن".

ولكني ألاحظ ربنا يبرز عادة فكرة الختام أو النهاية وليس الزمن حينما يتحدث بصرلمة لا تتوانى عن رهبة الجحيم إن التسليم للنار المدمرة عادة ما يمثل نهاية القصة ولا يمثل بداية لقصة جديدة.

ونحن لا نستطيع أن نشك في أن النفس الهالكة باقية في حالتها الشيطانية إلى الأبد ولكننا لا نستطيع أن نقول إن كان ذلك الثبات أو الجمود الأبدي يتضمن زمن لا نهائي أو حتى فترة زمنية معينة.

إن لدى الدكتور أدوين بيفان Dr. Edwyn Bevan

نظريات تثير الاهتمام حول هذه النقطة° إننا نعلم عن السماء أكثر من الجحيم، لأن السماء هي منزل البشرية ولهذا فهي تحوي كل شيء تتضمنه حياة إنسانية ممجدة، أما الجحيم فلم يصنع من أجل الإنسان، وهو لا يوازي

° symbolism and Belief, p, 101 من كتاب "الرمزية والإيمان".

السماء بأي معنى من المعاني. إنه للظلمــــة الخارجيـــة، الإطـــار أو الحافـــة الخارجية التي فيها يلاشى الكائن ويصير لا شيء.

في النهاية نجد الاعتراض بالقول أن هلاك ولو النفس الواحدة التام يعني فشل القدرة الكلية وانهزامها وهذا بالفعل حقيقي. فإن القدرة الكلية وهي تخلـق كائنات حرة الإرادة، فهي من البداية تقبل وتسلم باحتمال الفشل. ومـــا تســـميه أنت هزمية، أسميه أنا معجزة: أن يصنع ما هو مختلف عنه ويكون قادر علـــى أن تقاومه صنعه يديه فهذا لشيء مدهش وبعيد عن التصور بقدر يفـــوق كـــل الأعمال الماهرة التي ننسبها للمعبود أو للألوهية.

إني أؤمن بكامل إرادتي أن الذين دينوا نجحوا (بمعنى واحد محدد) في أن يتمردوا حتى النهاية، وأن أبواب الجحيم مغلقة من الداخل.

ولست أعني هنا أن الأرواح لن تتمنى الخروج من الجحيم علـــى نفـس منوال الإنسان الحاسد الذي يتمنى السعادة، ولكنها بالتـــأكيد لـــن تبغـــي ولـــو المراحل الأولية البدائية للتخلي عن الذات، التي بها وحدها يمكـــن للنفـــس أن تصل لأي شيء صالح.

أنهم يتمتعون للأبد بتلك الحرية الرهيبة التي طالما طلبوها ولـــــهذا فـــهم مأسورين داخل ذواتهم، كذلك المبارك فهو يقبل ويسلم بالطاعة للأبد، فيصـــير عبر الأبدية كلها حراً أكثر فأكثر.

وعلى المدى الطويل فإن الإجابة على كل من يعترض على عقيدة الجحيم تصبح سؤالاً في حد ذاتها: "ماذا تريد أن يعمل الله"؟ أن يمسح كـــل خطايـــاهم السابقة، بأي ثمن، أن يعطيهم بداية جديدة، أن يذلل كل الصعاب ويمنـــح كـــل العون المعجزي؟ ولكنه بالفعل عمل ذلك في الجلجثة.

هل تريد أن يصفح عنهم الله؟ لا فلن يصفح عنهم. هل تريد أن يتركـــــهم الله بمفردهم؟ للأسف، أخشى أن هذا هو ما يفعله.

يبقى تحذير وحيد وأكون قد انتهيت.

لقد جازفت وأدرجت في هذا الباب نموذج لنوع من الأشرار يسهل علينا إدراك شرهم الحقيقي وذلك حتى يتسنى للأذهان المعاصرة الحديثة فهم هذا الموضوع.

ولكن بعد أن تؤدي هذه الصورة غرضها فكلما نسيناها بسرعة كلما ذلك أفضل. يجب أذن علينا أن نضع نصب أعيننا خلال أي نقاش يدور حول الجحيم إمكانية الدينونة، لا أتكلم عن دينونة الأعداء ولا الأصدقاء (لأن كلا الاثنين يزعجون العقل)، بل عن دينونتنا الشخصية.

فهذا الباب لا يدور حول زوجتك، أو أبنك ولا يدور حول نيرون Nero (إمبرطور روماني فاسق، أحرق روما) أو يهوذا الإسخريوطي ولكنه يدور حولك وحولي.

الفصل التاسع

ألم الحيوان

لكي ما نستطيع اكتشاف الأشياء الطبيعة (أو الفطرية) يجب علينا دراسة عينات محتفظة بطبيعتها وليس عينات تم إفسادها.

أرسطو طاليس Aristotle السياسة Politics I.V,5

خلال كل ما مضى من وقت، وبعيداً عن معاناة وألم البشر "كانت تخترق السموات أنات صادرة عن آلام غير المذنبين" إن مشكلة الألم الحيواني لمشكلة هائلة وذلك لأن التفسير المسيحي للألم البشري لا ينطبق على الألم الحيواني ولا يرجع السبب في حجمها لعدد الحيوانات الهائل حيث أننا ذكرنا قبل ذلك أن الشعور بالألم عندما يعاني مليون شخص لا يفوق الشعور بالألم عندما يتألم شخص واحد وعلى حد معرفتنا فإن البهائم لا تستطيع أن ترتكب الخطايا ولا أن تمارس الفضائل وبالتالي لا يمكن أن تستحق الألم ولا يمكن للألم أن يقوم من حالتها.

في نفس الوقت لا يجب علينا أبداً أن نجعل مشكلة الألم الحيواني مركزاً لمشكلة الألم بصفة عامة لأنها تخرج عن نطاق علمنا، وليس لأنها غير هامة لأن كل شيء بشكل أساس مقبول للتساؤل حول صلاح الله يعتبر في غاية الأهمية. لقد أعطانا الله المعلومات التي تجعلنا قادرين نوعاً ما على تفهم معاناتنا الشخصية، ولكنه لم يعطنا مثل هذه المعلومات بالنسبة للبهائم.

إننا لا نعلم السبب الذي صنعت من أجله، كما لا نعلم ماهيتها. إن كل ما نقوله ونذكره بخصوص الحيوانات يعتبر من النظريات.

إن الله صالح، وانطلاقاً من هذه العقيدة نستطيع بكل ثقة أن نستنتج أن ظهور ما يسمى بالعنف أو الوحشية الإلهية المتهورة في المملكة الحيوانية ما هو إلا وهم، وما يسهل الإيمان بذلك هو أن الألم الوحيد الذي نعرفه (الألم الخاص بنا) من مصدره الأصلي يفقد قسوته ووحشيته. وفيما عدا ذلك فإن كل شيء يدخل في نطاق التخمين.

يمكننا أن نبدأ برفض بعض الأوهام التفاؤلية التي أغرينا بها على افتراس بعضها الأخر في تنافس يتميز بعدم الرأفة فإن ذلك ليس له أية قيمة من الناحية الأخلاقية على الإطلاق حيث أن الحياة بالمعنى البيولوجي للكلمة لا ترتبط بأية صورة من الصور بالخير أو الشر حتى يظهر الإحساس أو الشعور. وهكذا تستخدم الكلمات: في خسة وعدم رأفة هنا بطريقة مجازية أو استعارية.

لقد كان وردز ورث Words warth يعتقد أن كل زهرة تستمتع بالنسيم الذي تتنفسه، ولكن لا يوجد أي سبب يجعلنا نفترض أنه كان على صواب في ذلك.

ومع ذلك لا يوجد أدنى شك أن النبات يتفاعل مع ما يحدث له من إصابات بطريقة تختلف عن رد فعل المادة الغير عضوية، شأنها في ذلك شأن الجسد البشري الواقع تحت تأثير المخدر، ولكن ردود فعله لا تثبت أن هناك إحساس أو شعور.

وإننا بالطبع معذورون حينما نتحدث عن موت وهلاك النبات كما لو كان مأساة بشرط أن نعلم إننا هنا نستخدم صورة مجازية أو استعارة.

إن واحدة من أهم وظائف العالم النباتي والمعدني هو أن يزودنا بالرموز اللازمة للاختبار الروحي.

ولكن هذا لا يعني أن نصبح ضحايا لما نستخدمه من استعارات فإن غابة تقتل فيها نصف الأشجار نصفها الأخر هي غابة صالحة تماماً، لأن صلاحها يكمن في فائدتها وجمالها، وهي لا تشعر.

وحينما نتطرق للحيوانات نجد أن هناك ثلاثة أسئلة تطرح نفسها.

أولاً: هناك سؤال خاص بالواقع: من ماذا يعاني الحيوان؟

ثانياً: سؤال يتعلق بالمصدر: كيف دخل الألم والمرض لعالم الحيوان؟

ثالثاً: سؤال عن العدل: كيف يكمن لمعاناة الحيوان أن تتوافق مع عدل الله؟

١- إن إجابة السؤال الأول هي على المدى البعيد: لسنا نعلم! ولكن بعض النظريات جديرة بأن تؤخذ في الحسبان.

لابد لنا أن نبدأ بالمقارنة بين الحيوانات وبعضها، لأن إن كان القرد قادر على فهمنا فإنه سوف يتضايق جداً من كونه يقع تصنيفياً مع المحار ودود الأرض في نفس الفصيلة وهو بذلك مختلف أو منفصل عن الإنسان ومن الجلي أن هناك تشابه ما بين القرد والإنسان يفوق إلى حد كبير التشابه الموجود بين أي منهم والدود. ولا يجب علينا أن نفترض إننا قادرين على تمييز أي شيء يشبه الإحساس في النهاية السفلى للمملكة الحيوانية.

إن علماء الأحياء لا يستخدمون الإحساس أو القدرة على الحركة أو أي من المميزات التي تشبه هذه في تمييز النبات عن الحيوان، وهم في ذلك يختلفون عن العلماني الذي سوف يبني رأيه تلقائياً على مثل هذه المميزات.

ومع ذلك نجد أن الإحساس بالطبع يظهر في نقطة ما (لا نستطيع تحديدها) حيث أن الحيوانات العليا لديها جهاز عصبي يشبه إلى حد كبير جهازنا العصبي.

ولكن يجب علينا هنا أن نميز بين الإحساس والإدراك. وإن لم تكن قد سمعت بذلك الفرق من قبل ذلك، فإنني أخشى أن تفاجأ من هوله، فإن له تأثير عظيم وسوف يكون من عدم الحكمة أن تنحيه جانباً.

أفرض أن هناك ثلاثة أحاسيس يعقب أحدها الأخر

أولاً: أ ثم ب ثم ج. حينما تمر بتلك الأحاسيس فإنك تتجاوز العملية أ ب ج. عليك أن تنتبه لما يعنيه ذلك.

إن ذلك يعني أن هناك شيء ما بداخلك يقع بقدر كافي خارج أ ليلاحظ أن ذلك الإحساس أ يمضي. كما يقع بالقدر الكافي خارج ب حتى يلاحظ أن ب يبدأ الآن ويأتي حتى يأخذ المكان الذي تركه أ فارغاً. وهذا الشيء يستطيع أن يميز أنه باق على حاله خلال انتقاله من أ إلى ب ومن ب إلى ج، كما يمكنه بالتالي أن يقول: لقد مررت بالتجربة أ ب ج.

والآن هذا الشيء هو ما أسميه الإدراك، أو النفس، والعملية التي وصفتها الآن هي أحد البراهين التي تدل على أن النفس ليست تماماً زمنية رغم اختبارها للزمن.

إن أبسط اختبار للتسلل أ ب ج يتطلب وجود نفس. ولا يجب أن تكون هذه النفس مجرد تسلسل لعدة حالات بل بالحري تشبه المجرى للدائم الذي فيه تتدحرج الأجزاء المختلفة لتيار الأحاسيس، وهي تميز إنها باقية على ماهيتها تحت كل هذه الأحاسيس.

وإنه لشبه أكيد جهاز الحيوانات العليا العصبي يقدم تسلسل الأحاسيس هذا، ولكن ذلك لا يعني أن لديها أية نفس أو أي شيء يستطيع أن يميز أنه قد مر بـ أ ثم يمر الآن بـ ب، كما يلاحظ كيف ينسحب ب ليترك مكان لـ ج.

ليس لديهم مثل هذه النفس لذلك لن تختبر أبداً التجربة أ ب ج.

سوف يكون هناك ما يسمى بلغة الفلسفة بالتسلسل الشعوري، أي أن الإحساس سوف يتم طبقاً لذلك للترتيب كما إن الله سوف يعلم إنها حدثت بهذه الطريقة إلا أن الحيوان لن يعلم ذلك. لن يكون هناك إذاً شعور بالتسلسل.

إن ذلك يعني، أنك إن أعطيت مخلوق ما صفعتي سوط سوف يكون هناك بالفعل ألمان. ولكن لا توجد نفس تربط بين الأشياء وتستطيع أن تميز إنها نالت ألمان. وحتى في حالة الألم الواحد فإنه أيضاً لا توجد نفس تقول: "أنا في ألم" لأنها إن استطاعت أن تفصل نفسها عن الإحساس، أو المجرى عن التيار إلى حد يجعلها يقول (أنا في ألم) فإنها سوف تكون قادرة أيضاً على الربط بين الإحساسين وإدراكهم كتجربة خاصة بها.

إن الوصف الصحيح لهذه الحالة هو أن نقول أن الألم حادث في ذلك الحيوان وليس كما يقول العامة، أن هذا الحيوان يشعر بالألم، لأن الكلمات "هذا" "ويشعر" تحمل في طياتها خلسة الافتراض أن هناك ذات، أو نفس أو إدراك يقف فوق كل هذه الأحاسيس ويرتبها في تجربة أو اختبار كما نفعل نحن كبشر.

إنني أقر إننا لا نستطيع أن نتخيل أو أن نتصور الإحساس بدون الإدراك، وذلك لا يرجع لأنه لا يحدث لنا أبداً ولكن لأنه حينما يحدث لنا فإننا نصف أنفسنا بكوننا غيرواعين، وذلك صحيح.

وإن كانت الحيوانات رد فعلها للألم يفوق رد فعلنا فإن ذلك لا يثبت إنها واعية (لديها إدراك)، فقد يكون لنا نفس رد الفعل إن كنا تحت تأثير الكلوروفورم بل إننا قد نقوم بالإجابة على بعض الأسئلة أثناء نومنا.

ولكن إلى مستوى يمكن لهذا الإحساس اللاوعي أن يظل ظاهراً (في جدول التصنيف)، إنني لن أحاول التخمين فيما يختص بذلك. فبالتأكيد من الصعب علينا أن نتصور أن القردة، الأفيال وبعض الحيوانات العليا الأليفة ليس لها ذات أو نفس تربط بين الاختبارات وتنشئ ولو أثار من الفردية. ولكن جزء كبير من ما يبدو لنا معاناة للحيوان ربما لا يكون ألماً في معناه الحقيقي، وربما نكون نحن الذين أوجدنا فكرة المعذبون ونحن نستشف من بين السطور "ذات" لا دليل حقيقي على وجودها، لقد فعلنا ذلك بمنطقنا المغلوط المثير للعواطف.

٢- لقد اعتبرت الأجيال السابقة أن مصدر عذاب الحيوان هو سقوط الإنسان، أي أن العالم كله قد تأثر بتمرد أدم، التمرد الذي لا يخلق.

ولكن ذلك الآن يعتبر مستحيلاً، لأن لدينا أسباب حقيقية تجعلنا نؤمن أن الحيوانات كانت موجودة قبل الإنسان بمدة طويلة.

إن أكل اللحم، بكل ما يعقبه من نتائج، قد سبق البشرية في الوجود وعند هذه النقطة، من المستحيل ألا نتذكر قصة مقدسة، تؤمن بها الكنيسة للغاية رغم أنها لم تذكر أبداً في قانون الإيمان، كما تضمنتها أقوال الرب والرسول بولس ويوحنا الإنجيلي. إنني أقصد هنا أن الإنسان لم يكن أول مخلوق يتمرد على الخالق بل هناك كائن أقدم وأقدر منه أرتد منذ زمن بعيد وهو الآن إمبراطور الظلمة وبقدر كبير سيد هذا العالم.

إن بعض الناس يفضلون استبعاد أي من هذه العناصر من تعليم الرب وربما يجادلون ويقولون أن الرب حينما أخلى نفسه من مجده فقد تواضع أيضاً لدرجة جعلته يشارك كإنسان حتى في المعتقدات الخرافية الدارجة في ذلك الوقت. إنني بالتأكيد أعتقد أن المسيح وهو في الجسد لم يكن كلي المعرفة، ربما فقط بسبب عجز المخ البشري عن حمل العقل الكلي المعرفة. كما إنني إن قلت أن تفكير الرب لم يكن محدداً بحجم وشكل مخه فإني بذلك أكون أنكرت تجسده الحقيقي وأصبحت c, Docelist.

ومع ذلك حتى وإن كان السيد الرب يسلم لأي من الروايات العلمية أو التاريخية التي نعلم أنها غير حقيقية فإن ذلك لا يزعزع إيماني في ألوهيته.

إلا أن عقيدة وجود الشيطان وسقوطه لا تنتمي لقائمة الأشياء التي نعلم غير حقيقية، إنها لا تتعارض مع حقائق الاكتشافات العلمية ولكنها تتعارض مع مناخ الرأي العام المبهم الذي نعيش فيه الآن. ولأنا لا أعتد كثيراً بمناخ الرأي العام. في قرارة نفسه، كل إنسان يعلم أن كل الاكتشافات وكل الإصلاحات لأخطاء في التاريخ قد صنعت بواسطة أناس قد تجاهلوا "مناخ الرأي العام".

وهكذا فإن هناك قوة مخلوقة سبقت واستغلت بطريقة شريرة الكون المادي، أو النظام الشمسي أو على الأقل كوكب الأرض وذلك قبل ظهوره أي إنسان، وحينما سقط فإن هناك من أغواه. يبدو لي كل هذا إذاً أفترض معقول، ولكنه لا يقدم كتفسير عام للشر بل يعتبر تطبيق أوسع لمبدأ أن الشر ينتج عن سوء استغلال الإرادة الحرة. إذا كانت هذه القوة (الشيطان) موجودة بالفعل، إنني مؤمن شخصياً بذلك، فلابد أنها أفسدت المخلوق الحيواني قبل ظهور الإنسان.

إن الشر الجوهري في عالم الحيوان يكمن في أن الحيوانات أو بعض الحيوانات تعيش على تدمير بعضها البعض. إلا أنني لا أعتبره شر حينما تفعل النباتات نفس الشيء. وهكذا يعتبر الفساد الذي ألحقه الشيطان بالحيوان مشابه للفساد الذي ألحقه بالإنسان في نقطة واحدة فقط.

حيث أن واحدة من نتائج سقوط الإنسان هي تراجع إنسانيته إلى حيوانيته، الإنسانية التي تحول ورفع إليها، ولكن حيوانيته لا يقدر على التحكم فيها الآن.

على نفس الوتيرة فإنه تم تحفيز الحيوانات على الانحدار في سلوكيات يتسم بها النبات.

كما أن هناك حقيقة أكيدة وهي أن معدل الوفيات الرهيب الذي يسببه عيش الحيوانات على افتراس بعضها البعض يتوازن في الطبيعة مع معدل المواليد الرهيب، أي أنه يبدو وأنه إن كانت كل الحيوانات أكله للنبات وصحيحة فإنها سوف تعاني من الجوع نتيجة لتكاثرها.

إلا أنني هنا اعتبرت الخصوبة ومعدل الوفيات ظاهرتان متلازمتان ومترابطتان. فربما لم يكن هناك داع لهذا الغلو في الباعث الجنسي أي أن سيد هذا الكون قد فكر فيه كرد فعل معادل لأكل اللحم، فهو يمثل تدبير مزدوج غرضه معادلة ومقاومة أقصى قدر من التعذيب (أو الإبادة) الذي قد يحدث للحيوان.

إنني أقول أن المخلوقات الحية فسدت بواسطة كائن ملائكي شرير، ولكن يمكنك أنت أن تقول أن قوة الحياة قد فسدت إن كان ذلك يزعجك أقل إننا في الواقع نعني نفس الشيء، ولكني أجد أنه من الأسهل أن أؤمن بقصة أسطورية تتحدث عن آلهة وشياطين عن من أؤمن بأسطورة بها تسند أسماء لشخصيات غير ملموسة. فرغم كل شيء فإن أساطيرنا تقترب من الحق الكتابي أكثر مما نتصور. دعونا لا ننسى أن السيد في موقف واحد نسب مرض الإنسان للشيطان بوضوح ولم ينسبه لغضب الله أو للطبيعة (إنجيل لوقا١٣:١٦). وإن كان هذا الفرض جدير بالتأمل والتمعن فإنه جدير أيضاً بنا أن نتساءل ونفكر إن كان للإنسان دور خلاصي وفدائي يقوم به منذ أول مجيء له في هذا العالم.

إن الإنسان يستطيع أن يصنع العجائب للحيوان، حتى في زمننا هذا فمثلاً. في منزلي، يعيش قطي وكلبي معاً ويبدو إنهم يحبون ذلك. لربما كانت

إحدى وظائف الإنسان هي إعادة السلام لعالم الحيوان، وإن لم يكن قد أنضم للعدو (إبليس) كان سينجح في ذلك إلى مدى يصعب تصوره.

٣- أخيراً لدينا التساؤل الخاص بالعدل.

لقد رأينا ما يجعلنا نؤمن بأن معظم الحيوانات لا تعاني كما نظن، ولكن على الأقل هناك بعض منها يبدو وكأن لديهم أنفس، فماذا يمكننا أن نفعله لهؤلاء الأبرياء؟ كما رأينا أنه من الممكن لنا أن نصدق أن ألم الحيوان ليس من صنع الله ولكن زدلوة وخبث الشيطان هما السبب في بدايته، ولقد أدام الإنسان ذلك الألم وخلده بتركه لوظيفته.

ومع ذلك فإن كان الله لم يسببه فلقد سمح به، ولهذا نتساءل للمرة الثانية، ماذا عسانا نفعل لهؤلاء الأبرياء؟ لقد تم تحذيري من التطرف لموضوع خلود الحيوان، حتى لا أوضع بذلك في جعبة واحدة مع العوانس[1].

ولست أعترض على ذلك حيث أن كلا العذرية وكبر السن ليسا محل احتقاري، فلقد صادفت بعض أشد العقول فطنة ساكنة في أجساد عذارى فاتهم سن الزواج. كما لا يحركني سؤال فكاهي مثل.

"أين عساك تضع إذن كل البعوض؟ لعل سؤال كهذا يجب أن تكون الإجابة عليه فكاهية مثله، حيث أن نعيم أو جنة للبعوض وجحيم الإنسان يمكن أن يوجدا معاً بمنتهى السهولة.

هناك اعتراض جاد مصدره ضمت الكتاب المقدس التام وكذلك التقليد المسيحي بخصوص خلود الحيوان، ولكن إن كان الوحي المسيحي قد أظهر أية علامات تجعله كتاب يعالج نظام الطبيعة ويجاوب على كل الأسئلة فإن ذلك سوف يكون شيء خطير للغاية. فإنه لا يشكل هذا النوع من الكتب على الإطلاق. إن الحجاب قد أنشق في نقطة واحدة فقط ليكشف لنا عن احتياجاتنا العملية و المباشرة وليس الهدف إشباع فضولنا المعرفي.

---

[1] ومع ج. ويزلى J.wesley - the Great Deliverance
من كتاب التحرير الأعظم. العظة رقم ٤٥.

إذا كانت الحيوانات في الواقع خالدة، فمن الواضح من أسلوب الله في الوحي إنه ليس مرجحاً أن يعلن الله لنا ذلك. إن حتى خلودنا نحن كبشر يظهر كعقيدة في موضع متأخر في تاريخ الديانة اليهودية. إذاً الجدال إنطلاقاً من نقطة صمت الوحي يعتبر جدالاً هزيلاً.

بيد أن الصعوبة الحقيقية أن تصورنا أن أغلب الحيوانات خالدة تكمن في كون الخلود ليس له تقريباً أي معنى بالنسبة لمخلوق غير واع أو غير مدرك، الوعي أو الإدراك الذي شرحناه فيما قبل.

إن كانت حياة سمندل الماء (نوع من البرمائيات) عبارة عن مجرد سلسلة متتابعة من الأحاسيس، فماذا عسانا نعني حينما نقول أن الله قد يدعو ذلك السمندل الذي مات اليوم إلى الحياة مرة أخرى؟ إنه لن يميز ولن يدرك كونه هو نفس السمندل.

إن الأحاسيس الجميلة التي تحدث لأي من أمثاله الذين عاشوا بعد مماته ربما تكون متساوية في الكثرة أو في القلة لأحاسيسه بعد القيامة التي يجازي بها عن معاناته الأرضية (إن وجدت). لقد كتب هنا سوف أقول بعد قيامة نفسه، بيد أن السمندل غالباً ليس لديه نفس، بل أن ما نريد أن نقوله بخصوص هذا الفرض، لن يقال.

وهكذا أظن لا يوجد خلود لمخلوقات تحس وتشعر فقط. كذلك لا يتطلب العدل أو تتطلب الرحمة أن يحدث ذلك، لأن لا يوجد اختبار أو تجربة مؤلمة بالنسبة لهذه الحيوانات.

فإن جهازها العصبي يطلق جميع الحروف الآتية:

ل ، م ، أ إلا أنها لن تستطيع أبداً أن تكون من تلك الحروف كلمة ألم لأنها لا تستطيع القراءة. ربما كانت هذه حالة كل الحيوانات.

ومع ذلك لا يعتبر وهماً اعتقادنا الراسخ.

أن الحيوانات العليا وخاصة التي نروضها لديها نفس حقيقية وإن كانت بلا شك بدائية إن مصير هذه الحيوانات يحتاج يتطلب مزيد من التفكير العميق

لابد لنا أن نتجنب أن ننظر للحيوانات من خلال هي في حد ذاتها، لأن ذلك خطأ.

فكلما أن فهم الإنسان يحدث فقط من خلال علاقته بالله فقط فهكذا الحيوانات، يتم فهمها من خلال علاقتها بالإنسان فقط وبواسطة الإنسان يمكننا فهم علاقة الحيوان بالله. دعونا هنا نأخذ حذرنا من إحدى كتل الأفكار الإلحادية الغير متبدلة التي غالباً ما تبقى حية في أذهان المؤمنين المعاصرين. فيعتبر الملحدين أن تعايش الإنسان مع باقي الحيوانات ما هو إلا نتيجة عارضة للوقائع البيولوجية التي تتفاعل بعضها مع البعض، كما يعتبرون ترويض الإنسان للحيوان ما هو إلا تدخل جائر من جنس على آخر.

فبالنسبة لهم، الحيوان الحقيقي أو الطبيعي هو الحيوان البري، أما المروض فهو شيء صناعي وغير طبيعي.

بيد أن المسيحي لا يجب عليه أن يفكر بمثل هذه الطريقة لقد عُين الإنسان من قبل الله لكي يكون له السيادة على الوحوش. لذلك يترلوح أي شيء يفعله الإنسان بالحيوان بين حالتين: أما ممارسة شرعية لسلطة أعطيت له من قبل الله، وإما انتهاك، مستغل لهذه السلطة بمعنى أعمق، يصبح إذاً الحيوان المروض هو الحيوان الوحيد الطبيعي، الوحيد الذي يقع في المكان المعد له، وعلينا إذاً أن نؤسس عليه عقيدتنا بخصوص البهائم.

سوف نرى الآن أن الحيوان المروض يدين بذاته أو بشخصيته مهما وصل مداها ووصلت حقيقتها إلى سيده بالكامل فإن كان كلب الرعاة يبدو مصطبغ بالصبغة الإنسانية بقدر كبير فأن ذلك يرجع للراعي الصالح الذي روضه.

لقد ذكرت فيما قبل قوة كلمة "في" الغامضة. فلا أعتبر أن لها نفس المعنى في كل مكان ظهرت فيه في العهد الجديد، أي أنني حينما أقول الإنسان في المسيح، والمسيح في الله، والروح القدس في الكنيسة وأيضاً في كل فرد مؤمن، لا أعني بالضبط نفس المعنى.

فربما تكون هذه المعاني مترابطة أو متوافقة مع أكثر من معنى واحد.

إنني الآن على أتم استعداد أن يعدل اللاهوتيين الحقيقيين من الاقتراح الذي سوف أقدمه الآن.

أقول إنه ربما يوجد معنى لكلمة "في" يتوافق ولكنه لا يتطابق مع المعاني الماضية، يعبر عن كون الحيوانات التي تصل لنفس حقيقية موجودة "في" سادتها. أي أنك لا يجب أن تفكر في الحيوان بمفرده، ثم تسمى ذلك كيان أو شخصية وبعد ذلك تتساءل إن كان الله سوف يقيمه أو يباركه.

لابد لك أن تنظر للمضمون الكلي الذي يكتسب فيه الحيوان ذاتية، ولنذكر مثلاً: الـ زوج الصالح والـ زوجة الصالحة القائمان على أبنائهم وبهائمهم في الـ منزل الصالح.

فالمضمون الكلي يعتبر بالمعنى البولسي (أو بالمعنى الذي تبعه بفترة قصيرة) الجسد، فمن إذاً يستطيع أن يتكهن أي مقدار من هذا الجسد سوف يقوم مع هذا الرجل الصلاح وتلك الصالحة؟ ربما كثيراً جداً، بالمقدار الذي يحقق ليس فقط مجد الله وغبطه البشر بل الذي يحقق المجد الشخصي والغبطة الشخصية لكل إنسان المصطبغان أبدياً بتجربته الأرضية.

وبهذه الوتيرة يبدو لي ممكناً أن يكون لبعض الحيوانات خلوداً، ليست ذواتهم هي مصدر ذلك الخلود بل خلود سادتهم هو مصدره.

حينما يوضع للمخلوق في السياق أو المضمون الملائم له، فإن الصعوبة الناتجة عن بحثنا عن هوية شخصية في كائن بالكاد لديه هويه تختفي في الحال.

إذا تساءلت إذاً عن مكان مكوث الهوية الشخصية لحيوان قائم (بعد موته) كعضو في جسد المنزل الأسري بأكمله، فسوف أجيبك "بأنها باقية حيث كانت دائماً حتى أثناء الحياة الأرضية، باقية من خلال علاقتها بالجسد وخصوصاً بالسيد الذي يشكل رأس هذا الجسد".

يمكننا أن نقول ذلك بطريقة أخرى: الرجل سوف يعرف كلبه والكلب سوف يعرف سيده وهو بذلك يصير نفسه. وإن طلبت أن يعرف الحيوان نفسه، بطريقة ما أخرى، فإنك بذلك تطلب ما لا معنى له. فالحيوانات ليست كذلك ولا تريد أن تصير كذلك.

وبالطبع لا تنطبق الصورة التي قدمتها عن الكلب الذي يعيش في بيت صالح، على الحيوانات المتوحشة والأهم من ذلك إنها لا تنطبق على الحيوانات الأليفة التي تعامل بقسوة.

إن الغرض الوحيد هو التعبير بواسطة حالة واحدة متميزة عن الأسس العامة التي يجب مراعاتها عند وضع نظرية قيامة الحيوان، وفي نظري هذه الحالة هي الوحيدة الطبيعية والغير فاسدة.

لأنني أظن أن المسيحيين سوف يكونون على حق في ترددهم فيما يتعلق بالافتراض بأن الحيوانات خالدة وذلك لسببين.

أولاً: لأنهم حينما ينسبون للبهائم نفس بالمعنى الكامل لها، يخشون من تعتيم للفارق بين الإنسان والحيوان، وهذا حدة هذا الفارق تتمثل في البعد الروحي كما تتمثل في البعد البيولوجي (الحيوي) القائم والمبهم.

ثانياً: إن كانت السعادة المستقبلية مرتبطة بحياة الحيوانات الحاضرة كتعويض عن المعاناة، أي أنها سوف تمضي آلاف من السنين في مراع مشبعة كتعويض لها على عملها في جر العربات لسنوات عديدة، فإن ذلك يبدو إثبات غير متقن على صلاح الله.

ولأننا غير معصومين من الخطأ، فغالباً ما نجرح طفل أو حيوان عفوياً وبعد ذلك أقصى ما نستطيع أن نقدمه هو إصلاح ما فعلنا عن طريق بعض اللمسات الرقيقة أو بعض الأطعمة الطيبة.

ولكن ليس من التقوى أن نتصور أن الله الكلي المعرفة يتصرف بنفس الطريقة، كأن يطأ الله ذنب حيوان في الظلام ثم يحاول بأقصى ما يستطيع أن يصلح الأمر.

لست أستطيع في ذلك النموذج المشوه أن أميز لمسة السيد، وأيا كانت الإجابة فلابد أن تكون أفضل من ذلك.

إن النظرية التي عرضتها تبتعد عن هذين الاعتراضين لأنها تجعل الله مركز هذا الكون، كما تجعل الإنسان مركزاً ثانوياً للطبيعة الأرضية. وهكذا فالبهائم ليست متساوية في المقام مع الإنسان ولكنها تابعة له ومصيرها بتعلق به وبمصيره.

كما أن خلود الحيوان المشتق من خلود الإنسان لا يعتبر ترضيه ولا تعويض بل هو جزء لا ينفصل عن السماء الجديدة والأرض الجديدة، كما أنه متصل عضوياً بالسياق الكامل للألم المتلازم مع سقوط العالم وفدائه. إن فرضنا، كما فعلت أنا من قبل، أنه شخصية الحيوانات المروضة تعتبر إلى حد كبير معطاة من الإنسان أي أن إحساسهم المجرد يولد من جديد ويتحول لإدراك نفسي فينا كما تولد نفوسنا من جديد وتتحول للروحانية في المسيح، فإني أظن كذلك أن قلة قليلة من الحيوانات وهي في حالتها البرية تصل بالفعل إلى النفس أو الأنا.

ولكن إن كان بعضها يصل لذلك، ويرضي صلاح الله أن تعيش مرة أخرى نجد الموت، فإن ذلك أيضاً متعلق بالإنسان، ولا يخص الأمر هنا سادة فرديين بل البشرية كلها. أي أنني أريد هنا ان أقول أنه إن كانت القيم الشبه روحية والعاطفية التي ننسبها للحيوان ترتكز على أساس حقيقي في طبيعة الحيوان، وليست مرضية أو جائرة. فإنه طبقاً لذلك، أي طبقاً لتلك القدرة الكامنة فيه فإنه يرافق الإنسان القائم ويشاركه دربه.

وكمثال لذلك نذكر براءة الحمل وملكية الأسد. أما إذا كانت الصفات التقليدية التي ننسبها للحيوان خاطئة ومغلوطة، فسوف تكون إذاً حياة الحيوان السمائية [٢] بفضل تأثيره الحقيقي والمجهول على الإنسان عبر كل تاريخه. أي

---

[٢] لا يوجد ربما أي معنى، لأن تشارك الحيوانات في حياة الإنسان الأبدية في المسيح للوصول لله.

أن إذا كانت فلسفة الكائنات الحية المسيحية حقيقية بصورة ما (وليست أقــول إنها حقيقية طبقاً للكتاب) يصبح إذاً كل شيء موجود على هذا الكوكب مرتبـط بالإنسان يمكننا إذاً أن ننظر أن ذلك حتى للكائنات التي انقرضت قبل ظــهور الإنسان ونراها على حقيقتها، نرى هذه الكائنات الغير واعية وهي تخبر بقدوم الإنسان.

إننا حينما نتكلم عن مخلوقات بعيدة عنا كل هذا البعد، مثــل الحيوانــات المتوحشة وحيوانات ما قبل التاريخ، نتكلم على ما نعرفه بالكاد. من المحتمــل إذاً ألا يكون لديها أنفس وألا تعافي الألم.

من المحتمل أيضاً أن توجد نفس مشتركة لكل جنس من الحيوانــات، أي أن الأسود لم تساهم في عملية الخلق بل صفاتها ومميزاتها ولسوف يكون لــها دور في عملية إعادة تجديد وإصلاح كل شيء.

وإن كنا لا نستطيع أن نتخيل حياتنا الأبدية، كم نستطيع إذاً أن نتخيل حياة الحيوانات الأبدية كأعضاء لنا. (أي وسائل نستخدمها).

إن كان الأسد الأرضي قادراً على قراءة النبوة التي تتكلم عن اليــوم الذي فيه سوف يأكل التين مثله مثل الثور، فإن ذلك سوف يكون بالنسبة له بمثابة وصف للجحيم وليس للجنة أو السماء. أيضاً إن لم يوجــد فيــه أي شيء سوى الإحساس بطعم اللحم، إذاً فهو غير واع، وعندها لــن يكــون لبقائه حياً أي معنى.

أما في حالة وجود نفس أسدية بدائية، فإن الله يستطيع أن يعطيها جســد كما يحلو له، جسد لن يعتمد بعد ذلك على إهلاك الحملان، بل جســد ينتمــي لأسد بكل ما يحوي ذلك من ثراء، أي أنه سوف يظهر ويعــبر عــن الطاقــة والبهاء والقوة المتهللة التي طالما سكنت فيه أثناء حياته المرئية على الأرض.

وأظن أن النبي حينما يتحدث عن الأسد والحمل ساكنين معــاً كــان يستخدم أسلوب الإطناب أو المبالغة الشرقية، مع قبولي للتصويب إن كــان ما أقوله خاطئاً.

إن ذلك سوف يعتبر جسارة من قبل الحملان.

إن وجود الأسود مع الحملان بهذه الصورة المتآلفة سوف يكون بمثابة عدم وجود أسود أو حملان، إلا إذا حدث ذلك في مكان آخر في الكون فيه الأمور منقلبة رأساً على عقب.

ولأنني أعتقد أن الأسد حتى وإن كف عن أن يكون خطراً فسيظل مهوباً، عندها سوف نرى النموذج الحقيقي للكائن الذي لا نرى منه الآن سوى الأنياب والمخالب، تلك الصورة الغير متقنة والتي حدث فيها فساد شيطاني.

سوف يظل هناك شيء ما يشبه حركة معرفة الأسد: وغالباً ما سيقول الأمير الصالح: "دعوه يزأر ثانية".

ملحق

التعليق التالي هو الذي تكرم ووافنا به الدكتور ر. هافارد R.HAVARD عن تأثير الألم وذلك من واقع خبرته الاكلنيكيه.

يعتبر الألم حدث معتاد ومحدد، يسهل تميزه والتعرف عليه، إلا أن ملاحظة الشخص نفسه وسلوكه يعتبر أمر أقل سهوله، أقل اكتمالاً وأقل دقه خاصةً في نطاق علاقة الطبيب بالمريض الوقتية، تلك العلاقة التي نادراً ما تكون حميمة كما يلزم أن تكون.

ورغم هذه الصعوبة، تأخذ بعض الانطباعات في التكون تدريجياً في سياق الممارسة الطبية كما تتأكد مع نمو الخبرة.

أثناء حدوثها تكون صدمات الألم البدني القصير لها تأثير فائق.

ولكن المتألم لا يعبر عادةً عن معاناته بالكلمات العالية النبرة قد يتوسل من اجل تخفيف آلامه، ولكنه لن يبذل مجهودات في محاولة التعبير عن ما يعانيه بالكلمات.

من الغير معتاد أن يفقد مثل ذلك الإنسان سيطرته على نفسه أو أن يصير همجي في تصرفاته أو حتى أن يفقد صوابه.

أي انه من النادر أن يصعب تحمل اشد حالات الألم لهذه الدرجة. وعندما ينتهي الألم للبدني الحاد والقصير فإنه لا يترك أي تغير واضح في السلوك.

أما الألم الذي يستمر لوقت طويل فله أثار ملحوظة بصوره اكبر.

فغالباً ما يتم قبوله بقليل من أو بدون الشكوى وينمى لدى الإنسان القوة مع التسليم.

إن عزة النفس تتواضع في بعض الأحيان و قد تنتج نتيجة ورغبه الإنسان في إخفاء معاناته.

إن النساء اللاتي يعانين من الروماتويد المفصلي يظهرون بشاشة وابتهاج مميز يمكن مقارنته بما يحدث لمرضى السل. ربما يرجع ذلك لاكثر لتسمم بسيط يحدث للمريض نتيجة العدوى و لا يرجع لزيادة في قوة الشخصية.

بعض المرضى ذوي الآلام المزمنة يتدهورون. إنهم يصبحون مشاكسين كما يستغلون وضعهم المرضى في ممارسة الطغيان على من يعشون معهم في البيت.

ولكن العجب أن الذين يفشلون هم قلة أم الأبطال فهم كثيرون، حيث يوجد تحدي ما في الألم يتعرف عليه الأغلبية ويستجيبون له.

من الناحية الأخرى نجد أن المرض الطويل يرهق الذهن والعقل كما يرهق الجسد حتى وإن لم يكون مصحوباً بالألم.

إن المريض هنا يستسلم لهذا الصراع و ينجرف في حزن وعجز نحو الرثاء على النفس الذي يؤدي لليأس.

ومع ذلك هناك من من يعانون من نفس هذه الحالة العضوية أشخاص قادرون على الاحتفاظ بصفاتهم وعدم أنانيتهم حتى النهاية. إن رؤية مثل هذا الاختبار شيء نادر الحدوث ألا أنها مؤثرة جداً.

أما الألم العقلي فهو اقل صعوبة من الألم الجسدي، ولكنه لكثر شيوعاً ويعتبر اصعب في احتماله.

كما أن المحاولة المستمرة في إخفاء الألم العقلي تزيد من ثقل النير، حيث انه من الأسهل علينا أن نقول أن أسناننا قد تؤلمنا عن أن نقول أن قلبنا قد انكسر.

ومع ذلك إذا تم قبول السبب في المرض العقلي ومواجهته، فإن ذلك الصراع سوف يقوى وينقى الشخص، وسوف يمضي الألم في اغلب الظن خلال وقت قصير.

غير أن الألم قد يستمر في بعض الأحيان ويصير تأثيره مدمر، لأنـــه أن لم يتم التعرف على السبب ومواجهته تكون النتيجة هي حاله كئيبة أخرى مـــن الاختلال العصبي المزمن.

بيد أن هناك من يتغلبون على الألم العقلي المزمن ببسالتهم. وهم عادةً مـا يعطون عملاً إنتاجياً مبهر، كما تصبح شخصيتهم اكثر قوة وصلابة وصرامـــة إلى أن يصيروا مثل الفولاذ المطيح.

إن الاختلال العقلي المعاصر له صورة أكثر عتامة.

فلا يوجد في كل المجال الطبي شئ افظع من مشاهدة شـــخص مريـــض بالاكتئاب المزمن (السوداوية أو الماليخوليا) و لكن اغلبهم ليسوا غير ســـعداء كما لا يدركون حقيقة حالتهم.

في كل الحالات، إذا تم الشفاء، فإن التغير الذي يحدث يكـــون ضئيـــلاً، وغالباً ما لا يتذكر الإنسان شيئاً من مرضه.

إن الألم يمد الإنسان بفرصة لكي يكون باسل أو شجاع ومن الغريـــب أن كثيرين ينتهزون هذه الفرصة.

لا بد أن تُوقظ إيمانك عندئذ كل شئ سيظل ثابتاً، في حالة من التشغيل، أما الذين يظنون أنني بصدد أعمال غير شرعية فدعوهم ينتقلون لعالم الأموات.

شكسبير

دعني أموت وأنا غارق في عمق رحمتك ذلك الموت الذي تتمناه كل نفس حية

المحبة مع ما هو قبيح...

ولهذا لا يمكن للمحبة أن تتصالح مع خطيئتك، لأن الخطية في حد ذاتها لا يمكن أن تتغير.

ولكن يمكنها أن تتصالح مع شخصك، لأن هذا يمكن إصلاحه.

تراهيرن